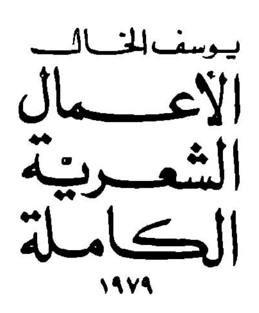
يوسف الخال

الأعمال الشعرية الكاملة

١٩٧٩

دار العودة - بيروت


يوسف الخال
الأعمال
الشعرية
الكاملة
١٩٧٩




دار العودة
للصحافة والطباعة والنشر

للمؤلف

الحرية (مجموعة شعر) ، دار الكتاب ، بيروت ١٩٤٤ (طبعة اولى)
١٩٤٨ (طبعة ثانية)

هيروديا (مسرحية شعرية) ، دار المدى ، نيويورك ١٩٥٤

البئر المهجورة (مجموعة شعر) ، دار مجلة شعر ، بيروت ١٩٥٨

قصائد في الأربعين (مجموعة شعر) ، دار مجلة شعر ، بيروت ١٩٦٠

الأرض الخراب ، لاليوت ، دار مجلة شعر ، بيروت ١٩٥٨

ديوان الشعر الأميركي ، مختارات شعرية ، دار مجلة شعر ، بيروت ١٩٥٨

روبرت فروست ، قصائد مختارة ، دار مجلة شعر ، بيروت ١٩٦٢

النبي ، لجبران خليل جبران ، دار النهار للنشر ، بيروت ١٩٦٨

الطبعة الثانية
١٩٧٩/١/١

بيروت ـ كورنيش المزرعة
بناية الريفيرا سنتر
هاتف : ٣١٨١٦٥ ـ ٣١٠٨٤٠

يوسف الخال

الأعمال الشعريّة الكاملة

(١٩٢٨ - ١٩٧٩)

محتويات الكتاب

الحرية

صفحة

صفحة

هيروديا

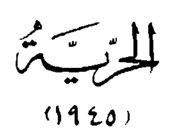
البئر المهجورة

صفحة

قصائد في الاربعين

صفحة

قصائد لاحقة


الحرّيّة
(١٩٤٥)

« ... أين ذاهبٌ أنت، أيها التعس !
شارداً فوق هذه التلال.
وغريباً في هذا القفر من الأرض،
ووحيداً ...

هوذا شعبك !
داخلَ الجدران حبيساً
كقطيع من الخنازير ...
... ماذا ؟
أذاهبٌ اليهم أنت،
لتطلق سراحهم،
وتجعلهم أحراراً ؟ »

(هومر : الأوديسه ١٠–٢٨١ تابع)

أنا كلُّ ما أدّعي

حملتُ صليبي معي

أملّع يأسي وأخنق.

إمّا جرت. أدمعي.

فلا الوهمُ في خاطري

ولا الليلُ في أضلعي.

وأحيا غريباً وفوق

منال العلى مطمعي

كأنَّ الذرى موطئي

وجفن السنى مضجعي.

أنا يا نجوم اشهدي

ويا – يا ليالي اسمعي

سأَخلق فجراً جديداً

إذا الفجر لم يطلعِ

وأبني غداً يدّعيه

الخلود متى يدَّعي.

فَّن اليقظةَ بالرؤيا وتاه

ٌ كلُّ المنى بعض مُناه

البرهة من أَيامه

ـمر للناس جناه

لم يشيِّع مرتجىً

الليل مفاتيح دناه

مدّ الى النعمى يداً

فمالت عن رجاه

كالوهم . فلا

ـه ، او قلب وعاه

ـلب هواه . فانثنى

ـضح للغير هواه

ظَنَّ مسكيناً عرته جِنَّةٌ

فمضى يزحم في التيه خطاه :

ليتهم يدرون كم من جِنَّةٍ

اشعلت للكون مصباح هداه !

أيها الشاعر غنِّ نغماً

أسكرَ النفسَ ولم يبرحْ صداه :

غنّهِ إلياذةً من هومرٍ

أمرعَتْ . والدهر لم يدرك صباه

غنِّهِ ما شئت . كم قيثارةٍ

أبدعت في عالم الفكر إلٓه :

سائل الاولومبَ من لبنانَ من

ملعبِ الاغريقِ عن أمسٍ بناه

تتحدّى العبقريات به

صولة الدهر وتملي ما رواه :

صوراً للفتح لم يحلم بها
قائد ركَّز في النصر لواه:
هوّذا الشاعر رمزُ الحقِّ في
عالم ضلّ عن الحقِّ وتاه
يصلب النفس ليفدي أنفساً
مرّغت في شهوة الحسِّ الجباه.

ضممتُها بِكرَ من ضَمَمْتُ
وقبلةً كان ما غنمتُ:
بريئةَ النَّيلِ يعتريها
سكونُ حبٍّ غفا . وصَمْتُ
يلفُّها الطهر قرمزيًّا
هام على ثغرها . فهمتُ
أرتشف اللون باشتياقٍ
يهمُّ بي مثلما هممتُ
فأطبق السرُّ مستباحاً
يموج في كلِّ ما علمتُ:
تحبني... جُهدَ ما تمنّتْ
وتخنق الوهم إنْ وهمتُ

تحبّني جامح التمنّي
أنثر في الحبِّ ما لمتُ
وأنشق الفوح من شذاها
منوّر النفحِ أينَ رمتُ.

يا قبلةً كلُّها نعيمٌ ،
حسبي من العمر أنْ لثمتُ
ولي بها غاية تُرَجّى
صلَّيت من أجلها وصُمْت !

غدٌ يحيا بنا هيّا
نشدُّ العهدَ بالعهدِ
ونروي ظمأً الاجيال
ما ننهل من وجدِ
فتحدونا سُراة الشكِّ
والظنِّ ، وتستهدي
مجالاً شُقّ من بعدكِ
في الحبِّ ومن بعدي :
دعينا نزرع الوهم
يقيناً في ذري الرغد
فأَنت لي ، ولي وحدي .

أَسومي إِن سالتِ الزمن

الريّان ما نحنُ؟

فنحن اليُمن في دنياه

إمَّا خانه اليمن

ورجعٌ سرمديٌّ اللون

قد أَفلته لحِن

فحارت من صداه العبقريِّ

الانس والجنُّ :

دعينا نزرع الوهم

يقيناً في ذري الرغد

فأَنت لي ، ولي وحدي .

سأَبني لك في سرّيَ

محراباً وفي جهري

وما سري وما جهري

سوى اليقظة من فكري

انا لولاك لا افتح

جفنيَّ على فجر...

فأَنت الامس ، والحاضر

والمقبل ، من عمري :

دعينا نزرعَ الوهم

يقيناً في ذرى الرغد

فأَنت لي ، ولي وحدي .

لنا في غدنا الذروةُ

والمغنم ، والعرسُ

فلا يدري بنا نحسٌ

ولا يهفو لنا بؤس

فمنّا يولد الآتي

وفينا يمّحي الأَمس

ولولانا يغور الكون
لا بدرٌ ولا شمس:
دعينا نزرع الوهم
يقيناً في ذرى الرغد
فأَنت لي، ولي وحدي.

سراباً غدا مطلبي

وخيطاً من الغيهبِ

وفيءَ جناح يطير

ويُمعن في المهرب

كأَن الزمان براه

محالاً ليعبث بي

ويملأَ نفسي احتضار

الضياء لدى المغرب.

غدي، يا غد الوهم والظنِّ

والامل المجدب

سقيتك ذوب رجائي الوحيد

فلم تشربِ
وخلتك دنيا فتونٍ
تعجّ على ملعبي
وتفرش دربي وروداً
وترقص في موكبي.

انا لن أَضمَّ جناحيَّ
بعدُ على مطلب:
سأُفرغ حبي وأفنى
مع البارق الخلَّب
مع الفارغات الكؤوس
والنغم المتعَب
مع الورد، في مخدع الموت،
والعنبر الأَطيَبِ.

غدي ، يا غد الوهم ، الظنّ

والأَمل المجدب !

رويداً ، فبعدَكَ لن استضيءَ

على كوكب .

حنانكِ لا تكتمي
هواك ولا تندمي
فلي منك أُمنيةُ
الجريح من البلسم
وأَغنى ، وما كنت قبلك
غير فتىً مُعدِمِ
شريدٍ يجرُّ أَمانيه
في أُفق مظلم
ويمسي على خاطرٍ
عليلِ الرؤَى مُبهَم .

حنانكِ ، لا رحمةً

إذا أَنت لـم ترحمي
تعالي نفضُّ الهنيهات
ملأى من المغنم
ونجني منىً هيَ من قبلُ
لـم تُجنَ في موسم
تُحاك لنا من خفوق
فؤادي ولون دمي:
فنذهب أُسطورةً
رواها فمٌ عن فم.

تعالي نفتّقُ دنيا
ربيع مع البرعم
أَنا لك احلى من البوح
في مسمع المغرم
وأَطهر من توبةٍ

الأثيم عن المأثم.

تعالي ولا تحرميني
هواك ولا تُحجمي:
فلن أرتجي رحمةً
إذا انت لم ترحمي.

طاف في دنياي أَحلى نغمٍ
وادعٍ أَحسبهُ من نغمي
ومضى ، لم يبقَ لي الا صدىً
منه يشجيني ويسري في دمي
آهِ كم علَّلت فيه أَملاً
غاب عني عدماً في عدم
وغمستُ الجرح في بلسمه
فإذا بلسمه من أَلمي .

نغمي قد مات ، أَشقى نغمٍ
كان ، لم يُندب ولم يُستَرْحَمِ
كبرياءُ النفس صاغت نعشه

ى في المأتم.

لسمْعي نغمٌ
ـسُ عفِّي واكتمي.

تهيم بي وتنفرُ
فأَرتجي وأَصبرُ
لعلَّها تدرك أَنَّ
الحبَّ لا يستتر
ومطلبي منها غدٌ
يُطوى ، وأَمس يُنشر
لنا على بسمته
أَنى تهادت أَثر
يضمُّنا معاً ويأْتي
بالمحال العُمُر
فنُنبت الرحمة في
قسوته . ونُزهِر

يا حيرتي فيما تبوح

لي ، وفيما تُضمر

زاغت بيَ الدنيا

وقلبي ضلَّ عنه الخبر

تلفُّه الحيرة في

أَوهامها ، فيعثر

ويرتمي ، والحلم في

يقظته ينداثر .

ما لي أَذرُّ النفس في

موطئها وأَنثرُ

وقِبلتي الشمس ، ومرمى

ناظريَّ القمر

ولي على الذروة من

دنيايَ حلمٌ أَنور

يملِّع النَزْوةَ من حبِّي

إذا أُحتَقَرُ

ويخنق الدمعة إنْ

تاق اليها المِحجرُ.

يا منيةً حسبتُها

أطهرَ مما تظهرُ

وخلتُ انَّ النَّفح في

أجوائها معطَّرُ

غيبي: فلا أحفل بعد اليوم

أو أصطبر.

يراودها التمنُّع والجفاءُ

وتلقاني ولقياها ازدراءُ

وتبسم لي وبسمتها تداعت

يكفِّنها من الذكرى بقاءُ

تُشيح بوجهها عني وتُغضي

مخافةَ أَن يهمَّ بها الحياءُ

تضنُّ عليَّ بالنُّعمى وتنأى :

جحودٌ ، أم غنىً ، أم كبرياءُ ؟

أَتنسى يومَ أَفرغت الأَماني

يسربلها من الحسنى وفاءُ

ويوم حملت عن شغفٍ صباحي

الى غدها ، وفي غدها مساء ؟

أتنسى ؟ كيف تنسى يوم كنا

وكان لها على صدري ارتماءُ

تتمّم لي لواعجها عناقاً

وتفلتني أُدغدغ ما أَشاءُ

فأَغرق في الطيوب ولا نجاةٌ

وأَشرد في المباح ولا نداءُ .

أنا في أَمسها ذِكَرٌ هنيءٌ

يعيه ، إذا تناسته ، الرُّواةُ

ينشّره الصباح ، فكلُّ صوبٍ

يهشُّ به وتغمره السماءُ

ويهمسه العبير الى الاقاحي

فيسكر من نوافحه الهواءُ

وتحدوه مدى الآتي قوافٍ

لها في كل قافلةٍ حداءُ.

أتنسى؟ ليت ينفعها التناسي
ولي أَنَّى تلفتتِ اختباءُ:
يلملمني السواد من الليالي
وينثرني على الكون الضياءُ
أَنا احببتها ومعي رجائي
وأَمضي الآن ينكرني الرجاءُ
تعلِّلني بها الذكرى وحسبي
من الذكرى التعلُّل والعزاءُ.

أَهواكَ يا نُعمى ترفُّ
وصدًى لأَحلامي يهفُّ
أَهواك ، أَنت شذا تضمَّخُ
منك أَجوائي وعَرْفُ .
أَهواك أُحجيةً أَتيهُ
بها ، ولغزاً لي يحفُّ
ومنًى تتاح سدًى ، وتجفو
كبرياء حين أَجفو .

أَهواكَ ، أَهوى الغمز في
شفتيك ، عن هزءٍ يشفُّ
أَهواك مهما كنتَ : لا

ترعى العهود ولا تعفُّ

أَنا هازئٌ بالحبِّ بعدك

يا حبيبُ . ومستخفُّ

دعني . وكن ما شئتَ ،

لا ارتدّ عنك ولا أَكُفُّ

سيّان عندي حين يغمرك

الجفاء وحين تصفو :

لي فيك مطّلب أُبيح

لديه ذنْبك لي وأَعفو

لولاك لم يكُ لي يدٌ

تعلو ، وأَجنحة ترفُّ.

وكان أَنْ عاد لي حبيبي
يجود بالصفح عن ذنوبي
مجنَّحَ الهفّ بالاماني
كموعد المرتجى القريب
يذرُّ في هشِّه شروقاً
فيهزأُ الكون بالغروبِ
نُعماه أُحدوثة رونها
دغدغة الوصل للحبيب.

قد عاد، فالقبلة استفاقت
تُبرعم الحبَّ في القلوب
وتفرش المرتمى وروداً

فتغرق الأَرض بالطيوب :

هناك «لا تأْملِ انتهاءً»

يوشوش الصبح للمغيب !

حملتُ اليكِ أنداءَ الصباحِ
وأشواقَ الربيع الى البواحِ
وملتُ عليك بالإشراق طلْقاً
وبالدنيا على كفٍّ السّماحِ
وجِدتُ ، فكم سفحتُ من الأَماني
لديكِ ، وكم سقيتكِ من جراحي
وكم باعدتُ عنكِ يد التلاشي
وصُنْت جناك في اليوم المُباح
أَغار عليك من نفسي وأخشى
على أَقداس طهرك من جماحي
فأَنت من الورود ولست منها
فلونك عبقريّ الظلّ ضاحي

ووجهك ما أطلَّ على ربيعٍ

ولا هلَّت محاسنه بساحِ

يسربلك الرُّواءُ. فأَيُّ حسنٍ

يراك ولا يهاب من البراح؟

نفحتِ شذًى على الدنيا غريباً

تناقلُهُ الرياحُ إلى الرِّياحِ

فتغرقُ فيه أَجواءُ العَشايا

وتعبَقُ منهُ أَردانُ الصباح.

حبيبي متى نلتقي ؟
فإني صباحَ مساءْ
أَسير وكلِّي رجاءْ
إلى المفرقِ

فيا عينُ لا تدمعي
رويداً ، فعمّا قريبْ
يعود إليَّ الحبيبْ
ويبقى معي

يعود ويبقى معي
يبرِّد منِّي الغليلْ

فوطءُ البعاد ثقيلْ
على أَضلعي

ولي مأْملٌ في الغدِ
أَهزُّ به الكائناتْ
وأَجني ثمار الحياةْ
بملءِ يدي

ومهما يُجنُّ القَدَرْ
ويفرش دربي ظلامْ
ففي جانبيَّ غرامْ
كضوءِ القمرْ

أَنا لكَ فجرٌ أَطلّ
وأَدعيةٌ تُستجابْ

وعهدٌ سخيّ الشباب

يضمُّ الازلْ

ولولاكَ كان الزمنْ

سحابة صيفٍ تزولْ

ونجماً علاه الافولْ

ودنيا شجنْ

تعالَ ولا تسرعِ :

أَخاف عثار الطريقْ

فما في الحياة صديقْ

وإنْ يدّعي !

حلوتي ، يا شذا العشيّات
في ميعة الزَّهَرْ
حبَّذا أَنت منيةٌ
خلت أَنْ يومها عبر
يا لعَينيك ترغبان
من الغيب ما ضمَر
لهما للخفيٍّ شوق
العصافير للسَّحر
ولدى تحلمان ، يا
موعد الارض بالسَّمر !

حلوتي . أَيُّ حلَّةٍ

حاكها الحسن واتَّزر

طاولتها النجوم فانتثرت

دونها دُرر .

يا نُعيمي . فأَنت لي

دون أَترابيَ الأُخَر :

نغم الحبِّ جنَّةً

ونضمُّ المنى غُمر

فاذا نحن . يا مناي

غريبان في البشر

يدّعينا الربيع طلًّا

على البرعم انهمر

ويعينا الزمن عهداً

من الحب مبتَكَر

لم يلده الخيال قبلُ

ولا طاله الفِكَر

لا ولا حاكت الأَساطير

عن مثله خَبَر.

عقدَ البرعم حتى أثمرا
فلوى أيكاً وأحنى شجرا
كلَّما مرَّ لديه عابر
أوقف السير وجدّ النظرا
وتمنَّى ما تمنَّى آدمٌ
فعصى الله ، وخلَّى عبقرا.

ثمرٌ ، يا طيبه ، فجّر في
أضلعي خمراً ، وأجرى كوثرا
طعمه أشهى من الطيب على
مضجع الحب ، وأغنى عنبرا
يبدع اللذَّة ، فالعيش سدًى

دونه ، والعمر تيهٌ وسُرى .

ثمرٌ ، يا طيبه . لو كان لي
أَطأُ النجم وأَحتلُّ الذرى .

نحن شوقٌ الى الرضى والْتفاتُ
ما غلبينا إذا تضنٌّ الغداة :
موسم كان أَنْ قطفناه سمحاً
فلدى كلّ لفتة جنّات
وشكا الأَمس أَننا ما صحبناه
وأَنَّا ما أَرغمتنا الشَّكاة .

نحن من نحن ؟ حقّ أَن يسأَل الناس
فقدْماً كم ضلَّ عنّا الرُّواة
غيرنا التائهون في حاضر العيش
وفي غيبه ، ونحن الهداة
يطمئن الفناءُ إنْ نحن أَومأْنا

إليه ، وتطمئن الحياة
إنْ رضينا . فالأَرض حبٌّ وخير
أَو غضبنا . فالأَرض قفر موات
ما أَتانا المحال إلَّا سأَلناه :
أَعفوٌ ما يبتغي أَم حُماة .

نحن ، يا صاحبي ، حنينٌ الى ماضٍ
وتوقٌ الى غدٍ وصلاة .

لا تسلْ عني ، فماضيَّ طَلَلْ
وغديْ أَنقاضُهُ ، لا ، لا تسلْ
أَنت في جوّك دنيا أَمل
آه لو تمنحني بعض أَمل :
أَنا إِنْ لم أَجمع الكون على
راحتي مثلك ، فالعمر فشل .

هاتِهِ من كبد الدهر غداً
باسماً أَعذب من رشف القُبل :
فإِذا بي شعلة تمحو الدُّجى
وإِذا بي يقظة تطوي الأَزل
وإِذا بي أَجتني الحبّ كما

يجتني النحلُ من الزهر العسل.

أَنا في دنيايَ كالليلِ، تُرى
هل يعي نورُك في دنيايَ هَلْ؟
لا أُبالي: غمرتني ظلمة.
أَم أَسى الدنيا على قلبي أَطلّ؟
إنَّ في قلبيَ للحبِ رؤىً
هي للنورِ انعكاسٌ ومطلّ.

ليت الهوى ما بيننا يمضو

فأَحَبُّهُ عندي هوًى غضُّ

متفَلِّتٌ أبداً متى غرُبتْ

شمسي . وراود جفنيَ الغمضُ :

إنَّ العلى . حتى العلى ، سأمٌ

إنْ طاوعَتْ وتمنّع الخَفْضُ

وهنيهة اللذات ، هل نَعُمتْ

إلّا لأنَّ نعيمها وَمْضُ ؟

هيهات ! ما همّي إذا طُوِيَتْ

نحوي العهود . ولفَّها النقْضْ

ومضى الذي ما كنت أحسبه

يمضي ، وتبقى بعده الارض:

إني غزوت الحبّ من صِغَري

وغَنِمتُ ما لم يغنمِ البعضُ

فعلمتُ أنَّ الحب مُنتَهَلٌ

خابت لديه الانفس الرمضُ

تطفو على صفحاته نَعَمٌ

ويغوص في أَعماقه الرفض.

عيناك

عيناكِ، هل أنا من يرود
عوالمَ الأَسرار وحدَهْ
ويجول حيراناً يرى
ما تطبق الأَجفان عنده :
سُوَرٌ من الآيات كم خلعت
على الأَكوان جِدَّه
فكأَنما سكر الظلام
فمدّ للأَنوار زنده
فتضاحكت زُهر النجوم
وعانقت للصبح نهده .
وكأَنما جُنّ الرياض
فعدَّ مثل الشوك ورده

ولوى النخيلَ الى الحضيض

فجرَح العلّيقُ خدَّه

ورمى الصنوبر بالخضوع

فطاول الريحان قدّه

وأَفاح من سَقْط النبات شذا ،

وأي شذا ، فبعده

خجل البنفسج ان يفوح

وخبأَ النسرين ندَّه .

وكأَنما في التلِّ تحنانٌ

وفي الوادي مودَّه

يتصافحان ، وكم شكا الوادي

قبيل اليوم حقده

وتحرَّقت أَنفاسه حسداً

وعاب عليه مجده .

وكأَنما حسر الزمان

جبينه وأَزاح بُرده
فإِذا الهنيهة عالمٌ
أَخفى عن الرغبات حدَّه
فبنى على الاغراءِ مخدعه
وفوق الحبِّ مهده .

هيهات كيف أَعيش ؟
في عينيكِ مأْساة ووحده
وتشوُّقٌ لغدٍ تخاف الشمس
أَن تنهار بعده
وبقيَّةٌ من غابرٍ سكب
النعيم لديه رغده
ورؤى يضيق بها الخيال ،
فترتمي للغيب عبده .
أَوَّاه ! هل أَنا واهمٌ ،

أَتتيح لي عيناك عوده

للحبِّ ، أمرغ جبهتي

بترابه وأَعيش عبده ؟

لا يا حبيبةُ ؛ لست من

يرتاد في عينيك سعده :

لي خافق عبث الزمان

به ، ولم يبلغ أَشُدَّه

خبر الهوى زمناً ، فأَسكر

لبَّه وأَطار رُشده

وهوى به حتى أصار

الليل مأْتمه ولحده .

زنابق الجنّة يا أَناملُ
أَم خُصَلٌ من السنى أَوائلُ ؟
تورّدت أَكمامها ، فيا دمي
أَمهل ! وددتُ الموتَ لا يعاجل
حسبي أَنِ اعتلَّت على إهابها
روحي ، وحالت دونها الحوائل .

أَناملٌ أَنت : فهلَّا يا ترى
عرفتِ أَن العاج لا يماثَل
وأَن للبارئِ ، يا سبحانه
فناً ترامى دونه رفايل ؟
فأَيقظي الفتنة في جوارحي

أَو لا : فجودي كيفما أحاول :
فأَنهل الأَنمُل ، كم أُروى بها
هيهات ! جفَّت بعدها الجداول .

تسائلني أين لون الربيع
على وجنتيك، وأين الضُّحى
يجرِّر أردانه الناعجات
عليك ويدفع عنك الدُّجى؟
وأين اختيال الثرى، يا حبيب،
إذا ما ضفرت عليه الخطى؟
وعهدي بيومك أغنى منىً،
وأطيب من نشوة المرتمى
على رَحِبٍ، ناهدٍ، مشرفٍ،
تنوّر فاحمرَّ منه الذُّرى!

فقلت لها: كان لي موعدٌ

مع الحب سمحٌ، فريد النَّدى
أَضعت، ويا حبذا لو أَضعت
جناحيَّ من أَجله والرؤى !
فهيهات، بعدُ، أحس الخفوق
وأَشعر بالدُّفءِ ملءَ الحشا
وأُمسي على خاطرٍ عبقريٍّ
من الغيب يعمر عند الغُدى
وهيهات، بعدُ، أَصوغ الحروف
على مفرق الشِّعر تاج عُلى
وأَستنزل الفكر للغانيات
المعاني وشاحاً عليَّ السَّدى .

فقالت : أَلستُ أَنا موعداً
يطيب لديك؟ فقلت : بلى
ولكنه غير ما قد أَضعت ،

فإن شئت سيري معي أو فلا

عسى نلتقيه، ولو في الخيال

فنغني معاً . فأجابت : عسى .

وددتُ لو قبّلتُها مرتينْ
إحداهما عند انسكاب اللُّجينْ
مكوكباً ، أَضناه عبءُ الهوى
فاحمرَّ وانشقَّ الى توأمين
تمرّدا ، لا يقبلان الرِّضى
بالسّتر إلا كان قلباً وعين
وكان تحناناً إلى ضمّةٍ
ورغبةً حرّى إلى ضمَّتين .

وقبلتي الأُخرى ؟ أَتدري لدى
ينفضّ ختم السرِّ عن برعمين :
فتفتح الجنة أَبوابها

ويجتني آدم تفاحتين !
هناك ، حيث الدفء يجري شذا
وكوثراً عذباً على الضفتين
وحيث أهواء الصبا ترتمي
ظمآنةً تسكر من قطرتين
كأنما الخمرة في ثغرها
يتيمة تسأَل عن والدَين !

أوّاه ! ماذا لو تجود المنى
يوماً على الراغب في القبلتين :
فأَعصر القلب معاً فيهما
وأسكب الروح على دفعتين !

بلادي ضفار الخلودْ
ثراكِ ومهد الوجود
وقبر الردى ،

وسرٌّ براه الإلٰه
فكان محطً رجاه
وكان هدى ،

ونعمى بوشْيِ الأَزلْ
يعود اليها الأَمل
كرجع صدى ،

وكان حصون جبالْ

تموج ودنيا ظلال

وروض مدى ،

ونفحاً من الطيب فاحْ

وشهداً وهشَّ صباح

وهميَ ندى .

بلادي رفات الجدودْ

وحيث يحلّ السجود

وبذل الفدا .

وحيث تفلّت نورْ

يجوب رحاب العصور

وما بُدِّدا .

فكانت الى الفتح صُوْرْ
تشقُّ عباب البحور
وكلَّ عِدى ،

تمدُّ يمين الحياةْ
ربيعاً الى الكائنات
وتجلو الصدا .

وكانت ربوع الشآم
يدَ المجد أَنَّى أَقام
وأَنَّى بدا ،

وكانت لنا في الخطوب
مكان يسلُّ الغروب
غداً فغدا ،

بلادُ هنيبال قادْ
بنيها يطوف الوهاد
لسحق العدى .

فصبَّ كؤوس الزَّوالْ
بروما ، وهزَّ القتال
يداً ويدا .

وكانت شطوط البحارْ
تفيض علينا النضار
بكفِّ الندى .

فيأْوي الينا الفقيرْ
فيغنى ، ومن يستجير
ومن شُرِّدا .

ويطمع فينا الغريبْ
فيزحف زحفاً رهيب
بمن جَنّدا .

بلادي ، ويومَ العربْ
مددتِ يمين العطبْ
الى من عدا ،

تقودين إثر الفتوحْ
فتوحاً وتلك الجروح
أَبت تُضمدا ،

فمنك أَقلَّ الشراعْ
معاويةً للصراع
وما عُوِّدا .

بلادي ، جبين الفخارْ
وظِلٌّ له أين سار
وأَين غدا .

.

وقِدْماً سفحتِ الدماءْ
الى الناس منهل ماءْ
لدفع الصدى .

فكنتِ شهيد الوفاءْ
يمدُّ اليك العداءْ
أَكُفَّ مُدى .

غداً يستفيق الجَحودْ
علينا نهزُّ البنود
فلن يُنجَدا ،

فنغرسُ في كلِّ ناحْ
إباءَةَ من يُستباح
ومن يُعتدى ،

وكلٌّ مهبّ رياحْ
نداءٌ يسلُّ الكفاح
فلن يُغمَدا .

غداً في الملمّ العصيبْ
إساءَة أَمسٍ تغيب
وتمضي سُدى ،

فنطعن كيد الزمانْ
ونمشي ، فلن نُستهان
ونُستعبدا ،

ويسري الينا الضياءْ

أبيّاً ويأوي المساءْ

أعفَّ يدا .

٠

غداً يستطيب البزوغْ

حِمانا ويحلو البلوغ

لنا موردا ،

ويندى جبين السماءْ

فيفتح كفَّ السخاءْ

بما زُوِّدا .

فيخضرُّ فيكِ الذِّبولْ

ويُكسى تراب الحقول

وقد جُرِّدا .

بلادي ، فليسَ المحالْ
لنا غيرَ بعضِ نَوالْ
وبعضِ جَدَا :

يمينَك نطوي الغيومْ
ونبني مكان النجوم
لنا مُنتدى ،

ونلوي زنود الصَّباحْ
جَناحاً يضمُّ الرياح
ويفني المدى .

بلادي احبُّ نداءْ
الينا ، وأَحلى غناءْ
وأَشهى حِدا ،

نفدّيكِ يوم الونى ،

ونبنيك فوقَ الدُّنى

منار هدى .

لبنان شأْنك أَن تبالي ،
جنحت خُطاك الى الضلالِ :
ما لي أَراكَ تكاد ، بعد اليوم ،
تغرق في الرمال
وعلى جبينك ما يعيب المرءَ
من ذلِّ السؤال
لا الأَرض أَرضك ، ما تشاء ،
ولا الأَساطير الخوالي .

جحدتْ بك الأَبناءُ لا
أَيدٍ تُمَدُّ ولا مبالي
فكأَنما خلع الظلام

عليك أردية الوبال

ولأَنت ، قبل اليوم ، مسرى

النُّور في درب الليالي

يأْوي إليك الخيرُ في

الدنيا ، وتحضنك المعالي .

ولطالما لجأَ الخلود

إليك يطمع بالوصال

فتجود . إمّا ضنّ غيرك .

بالفريد من النَّوال :

فاذا البحار مراكبٌ

تجري وتهزأُ بالمجال

تبني الشطوط مدائناً

للفكر . بعدُ . وللجلال

وتعلِّم الإغريق والدنيا

أَساليب المقال .

ولدى الزمان مآثرٌ
لولاك لم تخطر ببال
فبدأت من طاليسَ عهد
الكون بالفكر الحلال
ومشى الإله على ترابك
ناصريّاً في التجالي:
وعدُ الخليقة بالفداء،
وبالخلاص، وبالتّعالي.

لبنانُ، يا بلدي الحبيب
إذا عبدتك لا أُغالي
أملُ العروبة في يديك
وإن تجاهلتِ الموالي.
أتُرى يُعاد الأمس يومَ
وقفتَ في وجه الأَوالي

تحمي بقايا النُّور في الشرق

الجريح من الزوال

وتظلُّ للأَحرار موئلهم

على مرِّ الليالي :

تبْني حدودك حيثما

يقع الصباح على جمال .

لبنانُ ، روحي عنك ، يا

وطناً تفرّد بالمُحال

فلأَنت أَول يعربيّ

الوجه غربيّ الخصال

جمعت يداك رؤىً تموت

وواقعاً حيَّ الفعال .

نفديك يا وطني ، ونحمي

جانبَيك بالابتهال

ونحبُّ من يرتدّ ، في

جهلٍ ، عليك ومن يوالي :

فنواكب النُّعمى ، ونهدي

الشاردين الى المآل .

بزغتَ فكان أَروعَ ما تجلّى
علىٰ لبنانَ من أَملٍ وهَلّا
يعيد إلى ربانا الغرب كهلًا
يعلِّمنا ـ وعلَّمناه طفلا
فبدّد عن شواطئنا الليالي
وعاد بنا على الدنيا مطلَّا.

شعاعَ الغرب، أَين وطأْتَ سهلًا
وأَين نزلت في لبنان أَهلا
فنحن على مدى الأَجيال كنا
يداً مُدَّت الى الحسنى وفعلا:
نحبَّ الغير إمّا جاءَ خِلًّا

ونصلحه إذا ما جاءَ مولى
لنا بالحقِّ إيمان سخيٌّ
نموت ، متى فقدناه ، ونبلى :
يظنُّ الناس أَن المجد سيفٌ
ونحن نظنُّه علماً وفضلا .

تُرى فاءَ الصباح الى بلادي ،
أَليس على وجوهكُمُ تجلَّى ؟
يمينَكمُ نقود الشرق غرباً
ونبني في حضارته محلاًّ
ونرشده متى زاغت خطاه
وثار على حقيقته وضلّا :
حياة الفكر في أَخذٍ وردٍّ
وموتُ الفكر في ان يستقلاّ
ومَن حسب العلى وِقفاً عليه

تناثر كالهباءة واضمحلَّا .

شعاعَ الغرب ، أيّ شعاع خيرٍ ،
له في كل جارحةٍ مصلًّى :
مددْتَ يداً نصافحها وفاءً
فأَنت أَحقُّ من يُوفى وأولى .

أُمّي هيّا بنا
ملعب الشمس لنا ،
ولنا الرّحبة من كل مدى :
فاذا كلُّ صباحْ
منك في الآفاق لاح
يغمر الدنيا ضياءً وهدى .

وترانا لم نزلْ
نخبة العلى الأُوَلْ
ويمينَ المجد أَنَّى أَومأ :
كم رفعنا علما
وبنينا أُمما

وغرسنا شاطئاً وشاطئا .

ملءُ كفِّنا الغدُ :

مشرقٌ مخلَّد .

وبنا تفنى وتحيا أُممُ ،

فلنا عزٌّ الدنى

ومواسم الغنى ،

ولنا في كل أُفق علم

هذه الأَرض لي وهذا الفضاءُ

ما تُرَاني ملكتُ ما لا أَشاءُ :

ثروةٌ ، يا نعمّها ، كم تفادى

وقضى في ادّخارها الآباءُ ،

سمّروا كلَّ مطرحٍ بالضحايا ،

والضحايا على المدى أَحياءُ.

وأَرادوهُ أَن يظلَّ ، فخاب

المجتوى دونه ، وخاب العفاءُ

وتحدّى مواكباً كفَّن النورَ

لواها ، وكلُّ فتحٍ لواءُ.

هذه الأَرض لي ، لدى كلِّ ظلٍّ

في حماها خميلة وسماءُ .

حفنةً من ترابها كانت الدنيا ،

وكان المدى . وكان الضياءُ :

ما لِشرقٍ لولا شفاعة لبنانَ

خلاصٌ ولا لغربٍ فداءُ .

حضن النور وحده وتبنّى

من روت عن مجيئه الأَنبياءُ .

هذه الأَرض لي ، دَرَجْتُ عليها

وعليها سيدرُجُ الأَبناءُ :

ما أنا ، إن هجرتها ، غير طيفٍ

أَنكرته ، في وصفه ، الأَسماءُ

وسؤالٍ ضاع الجواب عليه ،

مثلما ضاع في الدجى إيماءُ .

رُبَّ يومٍ بها ، على نكدِ العيش

نعيمٌ أقلّ منه الرجاءُ.

هذه الأَرضُ لي ، وكانت شراعاً
وستبقى ، فما لحقٍّ فناءُ:
تردُ النورَ حيثما يُورَد النور
سخياً فتشرق الصحراءُ.
وغداً ، شأْنها يعود ، فتُعطي
إنما الحرُ شأْنُه الإِعطاءُ:
فإذا كلُّ فكرةٍ قبسٌ منها ،
وكلُّ اختلاجةٍ إيحاءُ.
هذه الأَرض لي ، ومن كان مثلي ،
هل له غيرها منىً ودعاءُ؟
أَنا منها ، وطالما هي منّي ،
فلتكنْ ما أَشاءُ لا ما يُشاءُ.

وحدي أَنا ههنا ، في مشرقٍ من الدّنى
سكبْتُ للنور أَطيـاب الرضى مؤمنا :
فبرعم التــلّ ، والشاطئ ، والمنحــنى
واتَّشحت نرجساً ، واتَّزرت سوسنــا

وكان أَن اغدقت كفٌّ الليالي جَــدا
فتوَّجت مفرقي ، دون الورى ، سؤددا
وأَمرعت حيث أَسرى موطئي واغتــدى
خيراً ، كأَن الهدى ، مذ كان ، لي أُوجدا

وربَّ عهــدٍ مضى ، حبكت بُرد العلى
فمُــدَّ من ساعــد الخلود لي منْولا

وافصح الغيب ، لمـا شئته ، وانجلى
وارتدَّ عن موكبي ، أفق المدى مجفلا

أَنـا جنـاحٌ ومرمى ملعبي في الذُّرى
وحيثما حُـطَّ بي أَجريتـه كوثرا :
فاستبشرت موجةٌ ، واستضحكت لي ثرى
وقيل لولاي لم يدرِ الورى ما درى !

١

أَنا حرٌّ يا رب ، حرٌّ : ليَ العتمة
مسرى ، وملعب الشمس مغنى .
أَتملَّى وجه الحقيقة أَيان
تراءَى ، وأَيَّ فعل تبنّى .
فأَحيك الرؤى ، روى العقل ، فكراً
يتجلَّى مع الزمان ، ويغنى :
أَيّ فكرٍ يؤرخ الناس أَجيالا
ويبني لغاية الكون معنى
ويردّ الفناءَ وهماً ، وطيفَ الحقّ
دنيا ، وقوةَ الشرِّ وَهْنا .

أَنا حرٌّ يا ربِّ! ما أَنت حرٌّ ؟
ما وجودي، تُرى، إِذا كنتَ عبدا :
شيمةُ الحرّ أَن يروّض أَحراراً
ويأْبى إِلّا التحرر مبدا .
« كن كما شئت » سنّة الله في الكون
تناهت الى الخليقة عهدا .
« كن كما شئت » هكذا أَنت إِنسان
وكنْهُ الانسان أَن لا يُحَدّا :
حدُّه – إِن يُحدّ – حرّية تسمو
وتقتاده إِلى الخير عمدا .

أَنا حرٌّ يا ربّ ! حرّيتي كنهي ،
أَرود الجمال فجراً وفجراً .
كُلُّ فجرٍ أَروده أَفرشُ الارض
ضحايا ، وأَفجُرُ الدمعَ بحرا .

فكأني وُجدتُ كي أجتلي كنهي
وأَجني حقي رويداً وقسرا ،
وكأَن التاريخ ساحةُ حربٍ
بين حرٍّ وبين من كان حرّا :
أَتُرى جوهرُ الخليقة حرّية أَولى
بمن فاز في النضال وأَحرى ؟

أَنا حرٌّ يا رب ، حرٌّ : ليَ العقلُ
جناحٌ وذروة الحق مرمى .
يا إلهي شدّدْ جناحي ، وزده
قوة منك ، فهو غضٌّ – ومهما
همَّ من نفسِهِ وحلَّقَ أَجواءً
وطوّى من العلاءِ وضمّا ،
لا تزالُ الرياحُ تلوي خوافيهِ
وتهوي بهِ إلى ما تَعمّى :

فيصيرُ الوجودُ غمرَ ظلامٍ ،
وتصير الحياة طيفاً ووهما .

يا إلهي شدِّدْ جناحي : فما يكفيه
علمٌ ، مهما تساميتُ علما .
أَنتَ أَدرى بهِ ، فلو ينفع العلمُ
لما زادتِ الخليقة إثما ،
ولما جئتَ ههنا تفتدي العقلَ
وتروي أَنَّ المحبّةَ أسمى .
هبهُ من عندكَ المحبّةَ يا ربِّ ،
وزوّدهُ بالمحبّة فهما :
فاذا بالرياحِ غيرُ رياحٍ
كلَّما قارب الوصولَ ولمّا ...

ربِّ هبني محبّةً ، فبها أدركُ

حرّيتي وأَعرفُ نفسي.

أَنا ، إن لا أُحبَّ ، ما نفع عقلي

لخلاصي ، وباطلٌ كلّ بأْسي.

فخلاصي ، أَنا المسيَّرُ بالغيبِ ،

ومَن يومُهُ منوطٌ بأَمسِ ،

إنما تمَّ بالمحبة والعقلِ ،

فلولاهما أَغوصُ برجسي :

نعمةٌ أَستحقُّها ، إنْ أَنا آمنتُ

وطوَّعتُ للحقيقةِ حِسِّي.

أَنا حرٌّ يا رب ! في أَضلعي شوقٌ

إلى رؤية الحقيقة حرّا :

شاهدٌ ، إن رأَيتُها ، معلنٌ عنها

صراحاً لدى الخليقةِ طرّا ،

مفتديها بالروحِ إنْ رام عبدٌ

طمسَها خيفةً ، وجهلًا ، وغدرا .

ويح نفسيِ ، ما أَتعسَ الحقَّ في الدنيا

فكم مرةٍ يُباع ويُشرى :

كلُّ شيءٍ ، لدى العبيدِ ، حلالٌ

غيرَ شيءٍ : قولُ الحقيقةِ جهرا .

٢

إيهِ حريتي ! تذكرتُ بالأَمس

صراعي مع الزمانِ وبؤسي :

أَنا في مصر بالعبودية عُمّدتُ ،

فشبَّت على المذلَّة نفسي .

وحسبتُ الخلودَ بالجسدِ الفاني

فعمّرت بالجماجم رمسي

هَرَماً ، يسحق الفناءَ بكفَّيهِ

ويضحي مع البقاءِ ويمسي :

إنَّ من يطلب الخلود على الأَرض

كمن يُفرغُ البحار بكأْسِ .

وعلى شاطئ الفرات سألتُ النجمَ

عن حاضري وعن أحلامي ،

أغنم العيش برهةً قلَّ جدواها

وعزّت مصحوبةً بالسلام .

لا خلودٌ بعد الممات لنفسي ،

ومصيري مغلّفٌ بالظلام ِ.

كنتُ عبداً للعيشِ ، للموتِ ، للشرِّ ،

وعبداً للخوف والآلام ،

أَجهلُ الله ، أَجهلُ الحبَّ والحقَّ ،

وحرّيتي من الأوهام ِ.

ويحَ أشُّور ! كم سكبتُ بها الدمع ،

وغيّبت في ثراها النفوسا ،

رافعاً فوقها من المجدِ مُلكاً

يتحدّى – إذا تُطلُّ – الشموسا .

أَيُّ ملكٍ على العبوديةِ العمياء

يُبنى ، وما أُذِلّ ديسا :

سلْ أَشوراً ، وروماً ، والفراعينَ ،

وكسرى – سلْ نينوى ، والمجوسا ،

والأُولى طرّقت جيادُهُمُ البحرَ ،

وصبّت نعالها هندوسا .

أَيُّ ملكٍ كذاكَ يُبنى على القوّة

يبقى ، فلا يزول ويبلى :

أَين مجد العربان بعد ازدهارٍ

حطَّ في قمّة الجلال وحلّا ؟

أَين جنكيزُ فاتحُ الشرقِ والغربِ ،

نذيرُ الهلاك أَنّى أَطلّا ؟

أَين «تيمور» قاهراً ، والسلاطينُ

غزاةً ، «والبونابرتيّ» مولى ؟

هكذا يمّحي ظلام الليالي

ويفيءُ الصَّباحُ مهما تولَّى.

إيهِ حرّيتي! تذكرتُ بالأَمس

صراعي مع الزمان ونصري:

أَنا في موطن الصنوبر والأَرز

تحرّيتُ عن حقيقةِ أَمري.

فتحكمت بالطبيعةِ، فانقادت

الى فكرتي، سريعاً، وفكري.

فإِذا العقل سيِّدٌ، والأَمانيُّ

حبالى بكلِّ حبٍّ وخير،

وإِذا الله واحدٌ في ربى القدس،

وحرٌّ يسير بي حيث أَدري.

يا لأَبرام! يا للنبيّينَ من بعدُ

ولاةٌ على الحقيقة طفلَهْ.

سكبوا في سبيلها الدمَ والدمعَ،

وعاشوا من أَجلها العمرَ كلَّهْ.

لهمُ، دون غيرهم، شرف الوعدِ.

وإنْ أنكروا، لدنْ تمَّ، فِعلهْ

واستعاضوا عن الحقيقةِ بالوهمِ

وبالعيشِ دونها والتعلَّه،

واكتَفوا بالتراثِ من قبلُ، واهاً

أَينَ شأْن التراث إنْ ظَلَّ قبلهْ؟

ما لحريتي على ملعب الإغريق

تُسقى، غداة تظمأُ، سمّا.

أيّ سمٍّ أَمدّ حرّية الفكر

بفيضٍ من الشجاعةِ أسمى:

شرفٌ من يناله يصحب الحقّ

ويُجزى من المحبة نعمى.
ذاك يومي، نعمَّه، ردّني حرّاً
أَرى غايتي من العمر وهما،
إنْ أنا لا أَرود منتهلَ النور
وأَزداد للحقيقةِ فَهْما.

ايّ سمٍّ، أَقول، غلَّ يد الليل
وأولى على الصباحِ الخلودا.
فإِذا بالأُلومب ملعب أَحرارٍ
تحدّوا على الزمان العبيدا:
ينشدون الجمال، والعدل، والخير،
ولاءً، ويحْطمون القيودا،
رافعين اللواءَ في موكب الفكر
جنوداً، وحاملين البنودا:
موكبٌ شيّد الحضارة من بعدُ،

وأعلى الى السماءِ الحدودا.

يا لفتحٍ للفكر فتح أثينا،
أَين منه فتح السيوف البواترْ؟
تمَّحيْ دونه العروش، ويفنى
كلّ طاغٍ على الشعوب وقاهرْ.
يا لفتحٍ للفكر، مهّد للحقّ
سبيلًا، وزفّ خير البشائر:
هوّذا الله عن خطاياي مصلوباً،
يريني وجه المحبّة سافرْ:
فالتقى العالمان: الشرق والغرب،
وشدّا على الوداد الأَواصرْ.

إِيه حرّيتي - إذا تمّ نصري
بفداءٍ من المحبة سمْحٍ،

فتحررت من عبوديّة الشرِّ
وفازت على الطبيعة روحي –
فأَنا ما أَزال عبداً لنفسي ،
أَبتني من لذاذة الحسّ صرْحي ،
جائراً ، ظالماً ، أُكفِّن أَيامي
بدمعٍ ، من الشقاءِ ، وجرح .
فكأَنَّ البقاء غاية عمري
أَدّعيها ، اذا تضنّ ، برمح .

أَنا في عالمٍ من الخوف والارهاب
صنعُ الفناءِ ، صنعُ يديّا ،
زائغٍ يحسب المحبّة وهماً ،
والتفاني في خدمة الحق غيّا ،
جائعٍ ظنَّ قوته ثروة الأَرض ،
وما كان جوعه جسديّا .

فمضى في سبيلها يغرس الأَرض

حراباً . ويستبيح البريّا :

إنَّه المُلْك ، كم يدنِّس أقداساً

ويمشي في مأْتم المرءِ حيّا .

١

أَين عهدٌ غيّبت حريتي فيه

بسجنٍ من التقاليد قاسي .

أَخنق الفكر إنْ تعدَّى حدوداً

رسمتها ، من قبلُ ، أَيدي الأُناسي

فالضحايا ، باسم الكنيسة والدين ،

ترامت مخنوقة الأَنفاس ،

تحمل النور في الليالي الدواجي

وتصبّ الزيوت في النبراس :

مأْتمٌ للظلام تلك الضحايا ،

وهي للنور أَبهج الأَعراس .

ذاك عهدٌ تصارع الفكر فيه

معَ سجّانه ، فنال انتصارا .

فأَطلَّت حريتي تنسج الفجر

رداءً ، على الورى ، وإزارا ،

وعليها من الجلالة إكليلٌ

تسامى ، فزيّن الأَحرارا .

ولديها شوق النفوس الى الموت

فداءً عنها ، إذا ما توارى .

واطمأَنَّت إلى يدٍ زندها غضٌّ ،

وترمي ، فتسحق الأَشرارا .

وغداً ، عندما تعود السيوفُ

القُضْبُ منصورةً الى الأَغماد ،

أَترى ينتهي صراعي مع الشرّ ،

فأَحيا حرّاً الى الآباد :

أَصنع الخير ، أَنشد الحبّ والحقّ ،

وأَطوي الجمال ملءَ فؤادي ؟

نعمت لحظةٌ بها أَنا نفسي ،

لا كما شاءَ أَو أَبى أَسيادي :

مطمئنٌّ الى غدٍ ، أَزرع الحسنى

وأَجني المنى على ميعاد .

٣

يا بلادي حضنتِ ، من قبلُ ، أمجاداً

وشيّدت في بناءِ الحضاره ،

تغمرين الأمداءَ حباً وإيماناً

وتعلين للجمال منارهْ :

فعلى كل قمةٍ منك شيءُ ،

والليالي تناقلتْ أخباره .

أيُّ فكرٍ في تربك السمح لم يزهر ،

فتجني يد الورى أزهارهْ :

فازدهى عالم ، وكنتِ له الفتح ،

وجلًى ، فكان غارَكِ غاره .

يا بلادي ، وكمْ رفعت لواءً

سرمدياً في موكب الحريَّه :

منك لقيان هازئاً بالسلاطين

وحرباً على النفوس العتيَّه ،

يُرسل القول في الوجوه ويعلي

الحق ، رغم الأَذى ورغم البليَّه .

منك أُولئك الذين «تآخوا

للصفا» في عقولهم والرويَّه ،

والأُولى قيل عنهم «اعتزلوا» الحق ،

وفي قولهم عمىً وأَذيَّه .

ذاك أَمسٌ مضى ، وما ينفع الأَمس

إذا لم يكن لدى اليوم حيًّا :

وأَبى الدهر أَن يجود . فغامتْ

أَنجمٌ ؛ وارتدى جبين الثريَّا .

وامّحتْ شعلةٌ ، فساد ظلامٌ
في بلادي ، وطأْطأَ الفكر عيًّا ،
يحمل القيد في يديه ويمشي
في عبودية الضلال شقيًّا :
موجةٌ أسيويةٌ راعها النور
فأَرختْ حجابها البربريًّا .

يا بلادي سلمت ، ما زال لبنان
قويَّ العماد ، لما يذلاًّ ،
شامخ الأَنف ، رافع الرأْس ، حرّاً ،
هانئاً ، دون غيره ، مستقلاّ ،
ينحر الظلمة العتيَّة بالنور
ويبقى لدى الصباح المطلاّ ،
موئلًا يلجأُ الأُباة إليه .
ويوافيه كل حرٍّ ومولى :

ما تراه إلا تفرَّد في الشرق

بأَسمى من البقاءِ وأَغلى !

يا بلادي ، أَودعت عندك آمالي

وأسلمت في يديك القيادا !

أَنت للغير قوة تشهر السيف

وتبني ، على الفتوح ، العمادا –

يا بلادي ، وانت لي موطنٌ حرٌّ

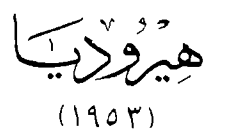
تسامى محبةً ورشادا ،

يحضن الفكر عبقرياً ويمشي

في ركاب الحياة أنى تهادى :

يعربيَّ اللسان ، واليد ، والوجه ،

يولِّي شطرَ البحار الفؤادا .


هِيرُودِيا
(١٩٥٣)

« ... قد تكون هيروديا آخر ما سأنتجه من أدب في هذا الاسلوب الشعري العتيق . فمن العبث الاستمرار في استعمال أساليب شعرية لا تصح بعد الآن للتعبير الكامل الطليق عن خوالج النفس . ولا أعني القوافي والأوزان فحسب ، بل اللغة ذاتها أيضاً .

« فأزمة الحياة العربية إجمالاً هي أزمة لغة كما هي أزمة عقل . ومهما طال الوقوف في وجه الحياة ، فلا بد عاجلاً او آجلاً من الانصياع الى نواميسها . والى ان يتم ذلك يظل الادب العربي المعاصر أدباً قديماً ، مصطنعاً ، محدوداً ، لا يتجاوب مع نفس القارئ ولا يعبّر تعبيراً صادقاً عن حياته . »

نيويورك ١٩٥٤

(من مقدمة الطبعة الأولى)

« ... فإن هيرودس كان قد أمسك يوحنا وأوثقه وطرحه في سجن من أجل هيروديا امرأة فيلبس أخيه . لأن يوحنا كان يقول له لا يحل ان تكون لك . ولما اراد أن يقتله خاف من الشعب لأنه كان عندهم مثل نبي . ثم لما صار مولد هيرودس رقصت ابنة هيروديا في الوسط فسرّت هيرودس . من ثمّ وعد بقسم أنه مهما طلبت يعطيها . فهي إذ كانت قد تلقنت من أمها قالت اعطني ههنا على طبق رأس يوحنا المعمدان . فاغتم الملك ولكن من أجل الاقسام والمتكئين معه امر ان يعطى . فأرسل وقطع رأس يوحنا في السجن . فأُحضر رأسه على طبق ودفع للصبية فجاءت به إلى أمها . فتقدم تلاميذه ورفعوا الجسد ودفنوه . ثم اتوا واخبروا يسوع . »

(انجيل متى، الفصل الرابع عشر)

الأشخاص

هيرودس	ملك الجليل
هيروديا	زوجة هيرودس
سالومه	ابنة هيروديا
تامار	وصيفة هيروديا

قائد روماني . قائد روماني أول ، قائد روماني ثانٍ ،
قائد روماني ثالث . يهودي أول . يهودي ثانٍ ،
يهودي ثالث . مدعوون من أعيان الجليل والرومان .

الفصل الأوّل

في مقصورة هيروديا : تامار ، وصيفتها ، تزينها استعداداً لحضور الوليمة التي أقامها هيرودس الملك في القصر .

المشهد الأول

(هيروديا - تامار)

١

هيروديا :

ضمّخيني ، تامار ، في جسدي عرسٌ

وفي أَضلعي هزيجُ مراحِ

وهنا في جدائلي سَمَرَ الليلُ

وهامَ الصباحُ خلف وشاحي

وافرشي فوق مضجعي خُصَل الورد

وصبّي الخمور في أَقداحي

ليلةٌ هذه تفوق ليالَّ

ارتماءً على الشهيّ المتاحِ

من عناقي ، ومن ترنُّح أَعطافي

ومن دفءِ نشوتي ، والتياحي

فانهياري سكرى على قَدمِ الشهوة

في ذلّة وخَفْضِ جناح.
ضمخيني، تامار، للطيب وقعٌ
دونه وقعُ نزوتي وجماحي
واتركيني للحب نَهْبَ فراشاتٍ
تهاوت على خدود الأَقاحي،
ونوالًا تعرّت النفس فيه
واستحمّت كنشوةٍ في الراحِ
فاذا مخادعي لهيرود ظلٌّ
في مساءٍ، وكوكبٌ في صباح،
وزوالُ الوجود في رعشةٍ حرّى
على وهْجِ قبلةٍ ملحاح.

تامار:

يا فداك الأَطيابُ من أَرض لبنان،
ومن كلّ جنّةٍ غيناء:
سوسنٌ فتّق الإزار صباحاً
وتعرّى على فراشِ الضياء

يغمز الشمسَ ما اطلّت ويصبو

كبرياءً الى عناق السماءِ ،

وأقاحٍ عذراءُ ضاجعها الليل

فتاهت بقامة هيفاء

ورداءٍ مفوّفٍ فتن الفجر

فألقى فتونه في الرداءِ...

هيروديا (مقاطعة)

حسْب تامار !

فأزكى من الطيوب خصالي :

هل «لحوّاءَ» يوم آدم إغوائي

وشوقي الى ارتياد المحال .

ام «لساره» بعضُ الذي وهبت نفسي

وأملي على الزمان وصالي .

أم «لراحيل» زهوةُ الحبّ في قلبي

وديباجة الصبا في جمالي

واستباقي الورود للنَّور فجراً

بردائٍ غضٍّ وسحرٍ حلال .

أَمْ «لإستير» رونقي . وارتدادُ الشمس

عن طلعتي . وفرطُ جلالي

وخضوعُ الملوك رهْنَ بنانٍ

درَّبتها المنى على الإذلال .

أَمْ «لإيزابل» الدخيلة شيءٌ

من صدود العذراءِ في إقبالي

وشدوخي كأَنما الكون خلقٌ

بيميني ومنحةٌ من شمالي !

تامار :

لا وربي...

هيروديا (متابعة)

ولو رآني سليمان

أَما جُنَّ قلبه لدلالي

وارتمى خاشعاً يقبِّل وجه

الأَرض من موطئي وظلّ نعالي ،

لا شلمّيث تدّعي حبّه بعدي ،

ولا الالفُ من ذوات الحِجال

يُنشد الشعر عبقرياً كوحيي

وفريداً كخطرةٍ من بالي .

تامار :

ويحَ نفسي ! تساؤلٌ منك هذا

أَم يقينٌ مغلّف بالحياءِ ؟

أَنت للحسن سرُّه ، فإلى خدّيك

يأْوي النهار في الإمساءِ ،

وعلى شعرك المعنبر أَغفى

الليل في نجوة من الإسراءِ

ورمى ظلّه فأَظلم جفناك

ورفّا كطائرٍ في مساءِ

يزحم الأُفق تائهاً ويضمّ

الريح في حيرةٍ وفي إعياءِ

فإذا كل نظرةٍ منك وعدٌ

بلقاءٍ وجفوةٌ من لقاء.

هيروديا :

وجبيني ، تامار !

تامار :

نجمة صبحٍ

هيروديا :

وفمي ؟

تامار :

كأْسُ خمرةٍ مرجانُ

هيروديا :

وشفاهي ؟

تامار :

قلائدٌ قرمزياتٌ

أمرّ انحباكها فنّان !

هيروديا :

ونهودي ؟

تامار :

حُقَّانِ عاجاً

هيرودِيا :

وجيدي ؟

تامار :

صولجانٌ ...

هيرودِيا :

وقامتي ؟

تامار :

بيلسانٌ

ولدى محبكِ الملاءةِ ربوٌ

سوسنيٌّ ومدرج أُقحوانُ

وتهادٍ كأنَّ فخذيك ركنا

هيكلٍ جاد صنعَه لبنانُ

هيرودِيا :

ما تقولين في ابنتي وهيَ مني

بمقام الشذا من الأَزهارِ
يمّحي رونقي إذا ما أَطلَّت
مثلما يمّحي السُّهى في النهار
ليت لي بعض سحرها ، وقليلا
من رواءِ الشباب خلف الإزار .
واتزانَ الخطى على نغم العود
ورجعِ الأَلحان في المزمار .
واحتدامَ اللذات إمّا تلوّى
الخصر في جيئةٍ وفي إدبارِ ...

(يتعالى النداء : سالومه . سالومه !)

هيروديا :

إسمعي كيف يصرخ الناس سالومه
متى صُبَّت الطِّلا في الكؤُوسِ
وسرت نشوةٌ من الوهم حمراءُ
ودارت مجنونة في الرؤُوس ...

(تدخل سالومه بثياب الرقص الخليع)

المشهد الثاني

هيرودبا ، تامار ، سالومه

هيروديا :

يا لَعينيك يا ابنتي !

سالومه :

عفوَ أمّي

ما تأخرت عن رضى أو تواني :

راودتني وصيفتي عن زمانٍ

هوَ لولاك لم يكن من زماني ،

فأطالت تبرُّجي واستباحت

حرم الفنّ عنوةً في ازدياني...

فإذا بي ، كما ترين .

هيروديا :

جبينٌ

مشرقيٌّ ، وناظرٌ هندواني .

وشفاهٌ كأَن صيدون حاكت

حولها حلَّة من الارجوانِ ؛

ونهودٌ تكوَّرت من شعاع

الفجر عبر انحدارةٍ من جُمان

يزلجُ الطرف دونها عن لُجينٍ

كوكبته اللذات بالإدمان ...

يا نعيمي وأنتِ لي ...

سالومه :

بل نعيمي !

هيرودِيا :

فاذهبي . جرّح النداءُ الحناجرْ

واضربي الارض باتزانٍ مع اللحنِ

وميلي حتى تزيغ البصائر ؛

وتُجَنَّ القلوبُ من شهوة الحسّ

وتعمى عن الصواب الضمائر ؛

فإذا بي تكاد تشهد عيناي

على ثغرك النديّ العاطر ...

سالومه (مقاطعة)

تاجَ هيرودَ صاغراً ...

هيروديا :

فاتركيه !

ما لتاجٍ جدوى مع المعمداني .

واطلبي رأسه على طبقٍ غاوٍ

وجودي . فلن يضنّ زماني

بعده ... وارقصي . فلن يرقص التاج

على غير مفرقي ...

سالومه :

وهواني !

ويح نفسي أماه ! أيّ بلاءٍ

ما تريدينه وأيّ انتقامِ

غضبُ الله دونه

هيروديا :

لا أبالي !

سالومه :

وحسامٌ يثيره القوم دامي

هيروديا :

لا أُبالي !

سالومه :

أُماه... حسب هرودٍ

منكِ أَنْ دنَّس الهوى بالحرامِ

ولوي ساعد النبيّ مع القيد

ونِعْمَ النبيُّ صوتَ ملامِ

هيروديا :

لا تزيدي سالوم ، خير كلامِ

ما وعته ، ولم تقله الملاحُ

دونكِ المجد من يدي فخذيه

أَنتِ منك الرضى ومني الكفاحُ

سالومه (بغضب) :

أنا مني الرضى ؟ فلا كان يومٌ

أنا فيه وسيلةٌ صمّاءُ

وجناحٍ أعمى يسيّره الريح

ويمضي به الى ما يشاءُ...

هيروديا :

ما تقولين ؟ أنتِ من أنتِ يا حمقاءُ

لولاي ...

سالومه :

ذروة عصماءُ

لا طريقٌ مشاعة للمعاصي

عبّدتها أهواؤك الرعناءُ !

هيروديا :

أسكتي ويلكِ !

سالومه :

في السكوت عن الحقّ

ضلالٌ

هيروديا :

وفي الكلام ضلال !

أَيّ حقٍّ هذا ؟ أَفي الارض حقٌّ

والورى ، مثلما ترينَ ، نعالُ

للأُلى وطَّأُوا جباهَهُمُ ظلماً...

سالومه :

وللظلم صولةٌ فانسحاقُ .

حسناً ، ما كفى أَنِ انزرد القيدُ

على عُنْقه وشُدَّ الوثاقُ

وانطوى في غياهب السجن لا يشكو

وفي السجن ذلَّةٌ لا تُطاقُ ؟

هيروديا :

ما كفاني !

سالومه .

أُماه !

هيروديا :

لا . فيهوذا

نقمةٌ دونه ورجعُ عتابِ

وهرودٌ في قبضتي يتلوّى

فهو قلبٌ يهوى وعقل يحابي .

فتراني أخشى ، متى ظلَّ حيّا ،

أن يوالي على هواي التّحابي .

فإذا بالنبيّ حرٌّ . وبالأَعداء

من حوله رؤُوس حراب

ينضح السمَّ أصغراه ، فمجدي

بارقٌ خلَّب ونجمٌ خابي

وجناحٌ محلِّق صدم الريح

فأَهوى ممرّغاً بالتراب !

سالومه :

يا لَبلوي مطامعٍ لا تلاقي

الأَمن إلّا على شفار الجريمه

أَنت أُمي ، وللأُمومة حقٌّ
أَنت دنَّسته ، فبئس الأُمومه !

هيروديا :

أَنا دنَّسته ؟ أَلَا قبَّح الله
جميلا يصاب بالانكارِ
وعقوقاً أَشدَّ من وطأَة العار
وأَقسى من غضبة الأَقدارِ !

سالومه :

آه ! يا ليتني وجدت عقوقي
يومَ ضيَّعتُ حشمتي وحيائي ...
وتمنِّينَ بالجميل ؟ ومجدي
ذُلَّ في مخدعي مع الفحشاءِ
وجمالي أُبيح للمنظر العاري
وللبيع ، في الهوى ، والشراءِ .
وتمنِّينَ بالجميل ؟ وكفِّي
لُوثت منك في دم الأَبرياءِ

وضميري يسوَدُّ كالموت في قلبي

ويفنى مع بهجتي وهنائي .

بئس حظي من الحياة !

هيرودِيا (بتذلل) :

وحظي

منك يا مهجتي وكلَّ رجائي

أَوَتعصينني ؟

سالومه :

أَجل !

هيروديا :

وحقوقي ؟

سالومه :

لا حقوقٌ لآمرٍ بالنواهي !

هيروديا :

وجلالي ؟

سالومه :

أَبقى إِذا لم يلطَّخ
بالمخازي ويُمتهن بالسفاهِ !

هيروديا (بغضب) :

ويحَ رعناءَ ، تدَّعي راجح القول
وترمي مولاتها بالهُراءِ...
أَنا أَمضي إِذنْ !

سالومه :

الى أَين تمضين ؟

هيروديا :

الى حيث أَرتوي بدمائي
وأَرود الهوان في طلب المجد
وأَحمي بذلَّتي عليائي !
وليكن ما يكون ، لست أُبالي

سالومه (يتملكها الخوف) :

أَإِلى الرقص ؟

هيروديا :

فاجراً والغناءِ...

(تلتفت إلى تامار) :

أَلبسيني، تامار، رونق زهوٍ
سلبته الأَيام من نعمائي !

سالومه :

رفقَ أُمي...

هيروديا :

بمن ؟

سالومه :

بأَكرم تاج
في يهوذا، وبي، وبالأَجدادِ
أَنتِ أَدرى بما يجرّ من العار
غِناءُ الملوك في الأَعياد !

هيروديا :

أَنا ادرى، أَجل ! وأَدرى بما يجهل

أهلي . ويدّعي حُسّادي .
نقمتي زعزعٌ من الريح هوجاءُ
تشدُّ الأَبعاد للأَبعادِ ،
وتدكُّ الذرى وهادا ، وتنحطّ
كليلٍ مدججٍ بالسواد ؛
ما لشمشون مثلها حين ثارت
في دماه كوامن الأَحقاد

سالومه :

يا حنانيك أُرفقي !

هيرودیا :

ما عرفتُ
الرفقَ يوماً في ضربة الجلَّادِ !

سالومه (تخاطب نفسها بحيرة) :

ربِّ رحماك ! كيف أَصنع ؟ في قلبي
جراحٌ ... وفي ضميري جراحُ ،
ليتني لم أَكن .... رويدك تامار !

قفي ! أَوشكَ الدُّجى ينزاحُ

عن عيوني .. تُرى أأَمضي ؟

هيرودِيا (إلى تامار بغيظ) :

دعي عنكِ

سماعَ الهذيانِ من حمقاءِ

واستمرِّي ، تامار . هاتي إزاري

أَسرعي ، أَسرعي وهاتي حذائي ...

سالومه :

أنا أَمضي أُماه !

هيروديا (بمكر) :

لا ... لا ...

سالومه :

سأَمضي

علَّ هيرودَ لا يجيب سؤَالي ،

أَو لعلَّ الاقدارَ تُبكم فاهاً

قد يؤَدي كلامُه للوبال !

(تخرج سالومه مسرعة)

المشهد الثاني

هيروديا . تامار

هيروديا (بابتسامة الظفر) :

نجحت حيلتّي ! سألتك ، تامارُ

اذهبي ، إثرَها ، رقيباً يشاهدْ

ولساناً يروي على مسمعي مرأى

انتصارٍ حبكته بالمكائد .

(ستار)

الفصل الثاني

باحـــة في قصر هيرودس . هيرودس يتوسط
مدعوبه من أعيان الرومان واليهود ، وهم في جو
مرح باذخ ، كما ينبغي ان تكون فيه ليلة ملكية
ساهرة في ذلك العصر .

المشهد الأوَّل

هيرودس ، المدعوون

هيرودس :

أَنا هيرود . موطئي جبهة الشمس

يهودي أول (بسخرية)

مولاي ! أَم قلوب الغواني ؟

ما لنا والشموس ...

هيرودس (منتهراً)

صه !

يهودي ثانٍ (يخاطب رفيقه)

ويكْ حاذرْ !

هيرودس (متابعاً)

أَين سيفُ الاقدار من صولجاني

يهودي أول :

هيهِ . لولاه . لم يعفَّر جبينٌ

في ترابٍ ولم تُكبَّل يدانِ

لا ولا كان في يهوذا حسامٌ

قيصريٌّ وفاتح روماني!

أَنت مولى... أَجل!

روماني أول:

ومولى لروما

قائد روماني ثانٍ:

هَيْ! لتحيَ روما!

رومانيون:

لتحيَ... لتحيا!

روماني أول:

كلُّ وجهٍ نعلٌ لقيصرَ في الأَرض

روماني ثانٍ:

سلاماً! فنعلُ قيصرَ دنيا...

يهودي ثانٍ:

كلُّ وجهٍ تقول؟ ما وجه إسرائيل

نعلٌ...

روماني اول (يهم برفسه)

بلى... ودونك نعلا

يهودي أول :

ويحَ قومي !

(يتقدم، فيشد به رفيقه الى الوراء)

دعني له

(مخاطباً القائد الروماني)

لا تكابرْ !

نحن فجرٌ في ليلِ رومةَ هلّا

وقديماً لنا على ملعب الدهر

جناحٌ طوّى العصور وجلّى

ما عليه إذا ما تمرّد فارتدَّ

عياءً . وجدَّ سعياً فكلّا

وارتمى خائراً ، يضمِّد بالصبر

جراحاً...

روماني أول : (يستلّ سيفه)

كفاك غيّاً وجهلا

خذ جوابي...

روماني ثانٍ :

دعه ! فسيفك أحرى

برقاب العدى غداةً وأولى !

هيرودس :

ما جرى؟ املأُوا الكؤوس ! فأَعيادي

شرابٌ ، ومأْكلٌ ، وغناءُ

لا خصامٌ بين الأَحبَّة يوريه

جدال منمَّق... وهُراءُ

يهودي ثانٍ :

وهُراءُ !

ما لروما من بعد إِسرائيل

فتحٌ مظفَّر ولواءُ...

هيرودس (متابعاً)

ربَّ كأْسٍ حمراءَ من خمر لبنانَ

نعيمٌ مكوثر وسماءُ

من يذقْها أَطلّ من كوَّة الغيبِ

وأَفضى لناظرَيه الخفاء...

فاشربوا !

روماني أول :

نخبَ قيصرٍ...

هيرودس (متجاهلاً التحدي)

أَين سالومه ؟

روماني ثانٍ (بهزء)

رجاءٌ مضلَّلٌ بسرابِ

أَو لعلَّ الحسناءَ راودها طيفٌ

على نفسها وراءَ السحاب !

(تدخل سالومه بثياب الرقص)

المشهد الثاني

هيرودس ، سالومه ، المدعوون

يهودي ثالث :

يا لَعاري !

يهودي رابع :

ويا لذلَّة اسرائيل !

روماني أول :

صمتاً ...

هيرودس :

سالومَ ! مرحىً وأَهلا

أُنقروا الدفَّ ! مِلْ عن العين يا هذا !

إلٰهي ... ما وجهُ أُمك أَحلى .

(ترقص سالومه رقصة مثيرة ولكنها حزينة)

هيرودس :

ما لسالومَ ، لا يفضّ الخبايا

وقعها ، أو يجلجل المقدورا

فإذا الأَرض للنعيم جِنانٌ

تتعرَّى كواعباً وخمورا !

(تتابع سالومه الرقص ، رغم ذلك ، بكآبة تسيطر على الجو ، فيسود الصمت ، ثم تقترب نحو هيرودس ببطء)

هيرودس :

هيهِ سالومَ! أَقبلي . ما لخطوٍ

منكِ ساجٍ : أَرَهْبَةٌ أَم نواحُ ؟

ما تشائين والمنى سَكْبُ نعليكِ

وهٰذي قلوبنا أَقداح ؟

أَتحبين يا ترى ؟ اخبريني

فإذا الليل عبدُك المستباحُ

يفرش الدرب للحبيب نجوماً

فيوافي ، وما يطلُّ الصباح !

ليتني ذلك الحبيب ...

روماني ثانٍ :

وربّي

أَنا أَولى ...

هيرودس (متابعاً)

ومرحباً يا جراحُ

ولْيلمني من شاءَ لومَ «يُحنّا»

ما حياتي إلّا حبيبٌ وراحُ !

أُقربي ... أُقربي ... أَنا زوج أُمٍّ

للكِ ، أَحرى بما تجود الملاحُ

(تقترب منه فيمسك بيدها متأملاً جسدها)

أَيُّ شعرٍ هذا ... أَأَطباق مسكٍ

يمنيٍّ ، أَم عنبرٌ مسراحُ

يتهادى غنجاً على مِنْكَبي صبحٍ ...

سالومه :

كفاني ، مولاي ، مدحاً وزهوَا

هيرودس :

ما تقولين ؟ لا وربِّ يهوذا

ليس مدحاً ما قلته ...

سالومه :

منكَ عفوًا

هيرودس (يجذبها اليه)

أَنتِ لونٌ من الفتونِ بتولٌ

ما أهلَّت على ذراه السماءُ

يا لَوجهٍ ، خدّاه منبزَغُ الشمس

وعيناه ليلةٌ قمراءُ ،

وجبينٍ ممرَّدٍ ينطوي الافق

لديه ويستضيق الفضاءُ ،

حاجباه قوسٌ لداودَ شَدّت

طرفيه جنيّةٌ سوداءُ ،

وفمٍ إن غفا فهلّة بدرٍ

أَو تصاحى فنجمةٌ عذراءُ

بسمةٌ منه أَفتديها بروحي

روماني ثانٍ :

لا ، بروحي أَنا ...

روماني أول (هازئاً)

وأكرم بروحه

من تُرى أَنت ؟

روماني ثانٍ :

خير من شربَ الخمر

غَبوقاً وعبّها في صَبوحه

وتملّى الحسان في الدفءِ

روماني أول :

تعني

من نساءِ الخصيان والعبدانِ !

روماني ثالث (مخاطباً روماني اول)

دعْكَ منه وانظر ! فعينا « هرودٍ »

تتقرّى سالومَ في حرمانِ

ودَّ هيرودُ لو تزوج منها

ورمى أُمها الى المعمدان !

روماني أول (هازئاً)

من تُرى المعمدانُ ذا ... افعوانٌ ؟

روماني ثالث :

لا .. نبيٌّ ... اسكت !

روماني أول :

إهِي .. سيّانِ .

هاتها جرعةً أَلَذَّ على القلب

وأَشهى ممَّا يبوحُ لساني !

روماني ثالث :

ويلكَ ، أُنظرْ !

روماني أول :

دعني ...

روماني ثالث :

هروداً وسالومَ

غريقين ...

روماني أول :

دعهما يغرقانِ

واعطني صولجانه ...

روماني ثانٍ :

إيهِ ، مولاي

أَيكفي من الحسان نشيدُ

مُرْ إذا شئتَ رقصةً يتلاشى

الدهر فيها ويضمحلُّ الوجود !

آخرون :

هَيْ وروما أَحسنت !

هيرودس :

هيّا بنا سالومَ

سالومه :

عفواً ، مولاي !

آخرون :

كلَّا ! كلَّا !

روماني ثانٍ :

ما لرفض الحسناءِ فخرٌ لهيرودس !

آخرون :

لا . لا .

روماني ثانٍ :

ولا لرومة ...

هيرودس :

مهلا !

ما عصتني حسناءُ قبلُ، ولن تعصى

فكفِّي أَندى الأَكفِّ وأَغلى !

(يلتفت الى سالومه)

لكِ ما ترغبين: نصفُ يهوذا

بل حياتي...

سالومه (بخوف)

مولاي !

هيرودس :

أَنتِ المولى

سالومه :

يا إلهي !

هيرودس :

أَجل وعدتك ، سالومَ ،

ووعدي أَنا يمينٌ... وإِلَّا

فاطلبي : في خزائني دررٌ بكرٌ

أَعرن الفضاءَ بعض نجومِهْ

ضلَّ عنها غوص العماليق في اليمّ

وراءَ العصيّ من معلومه ،

وعقودٌ منظومةٌ باليواقيت

روماني أول :

خذيها ، سالوم !

روماني ثانٍ :

لا ، لا ، دعيها

في خبايا هيرود أَروع منها

فسليه... لعله يهديها !

هيرودس :

آيْ وربي ! فيها من اللؤلؤ الأَنور

فوجٌ معرَّب وجواهرْ

حملتها بلقيس ، يوم سليمان .

فزاغت ، لمّا رأتها ، النواظر ،
ومن العسجد المصوّغ أقراطٌ
خفافٌ برّاقةٌ وأساورْ
إن تُجلّت بها الحسان رددنَ
الصبح ليلا ، والليلَ صبحاً...

روماني أول :

فبادر

واعطها...

هيرودس (متابعاً)

في خزائني حللٌ حمرٌ
صِباحٌ ، هفّافةٌ ، مغناجُ
غزلتها أنامل الجنّ ، والليلةُ
عرسٌ والمرتمى أزواج
فعليها من اللذائذ إبراقٌ
ومن نشوة الهوى إيهاجُ...
آيْ ! ومنها ، سالومَ ، خضرٌ وبيضٌ

ناعجاتٌ ، محجّلاتٌ ، هِزاجُ

طرّزتها دمشق فهي دمقسٌ

ناعمٌ ، أنور السَّدى ، وهّاج

ورفتها شيراز فهي حريرٌ

مخمليٌّ ، وطيلسٌ ديباجُ ...

روماني أول :

يا لسالومَ ! لو تردّت بها الآن

فلا كان للدجى إصباحُ

لا ولا ضاءَ فوق رومة مصباحٌ

ولا مال دونها مصباح !

يا لها ...

هيرودس (متابعاً) :

في خزائني عنبرٌ أغدقُ

سكراً من الخمور العتاقِ .

ولُبانٌ معرَّقٌ في القوارير

ومسكٌ مدلَّجٌ في الحقاقِ

وطيوبٌ من كل لونٍ ونشرٍ

خصّلتها أَنامل العشّاق

في قصورٍ مسحورةٍ ، مرمريّاتٍ

شدُدنَ القباب بالآفاق.....

فاطلبي !

سالومه (باضطراب) :

عفوَ سيدي . لا يهوذا

نصب عيني ، ولا الحليّ الكرائمْ...

بئسَ يومي! ولا الحِلال البهيجات

العذارى ، ولا الطيوب الفواغم !

نصب عيني...

هيرودس (بحماس) :

ماذا؟ سلي النجم أَحملْه

على راحتي إليك قلادا ،

أَو سليني لبنان أَنسجْ رباه

فوق عطفيك مئزراً وبِجادا...

ما تشائين ، أطلبي !

سالومه (بألم) :

رأسُ يوحنّانِ

هيرودس (بخوف وعجب) :

ماذا ؟

بعض اليهود :

ويلاه ! يوحنّانِ ؟

سالومه :

أَعطينيه ، أَقسمتَ ، مولاي !

هيرودس :

واهاً !

(تدخل هيروديا فجأة)

المشهد الثالث

هيروديا ، هيرودس ، سالومه ، المدعوون

هيروديا :

أيّ واهٍ ، هيرود ، من سلطان !

فليكن ما تشاء...

هيرودس (يقف مدهوشاً) :

هيرودِيَا مرحىً !

هيروديا (بكبرياء) :

ومرحىً بالسمّر الخلّان

من أَجاويد قيصرٍ...

هيرودس (مستدركاً) :

ويهوذا !

هيروديا (تلتفت الى هيرودس) :

أَعطها رأْسه !

سالومه (بتردد) :

أجل ، أعطنيهِ

أتغنّى به على طبقٍ غاوٍ ...

هيرودس :

محالٌ ! روح الألوهة فيهِ

كيف لي أن أدوسها ؟

هيروديا :

أنت أقسمت

وحقٌّ على الملوكِ الوفاءُ

ما يقولون عند قيصر إمّا

سمعوا عنك ما تعيبُ الإماءُ !

هيرودس (متحمساً) :

آيْ وربي أقسمت ... فَلْيَكُ ما أقسمت

هيهِ ! ولتعرفنَّ العبادُ

أنَّ هيرود سيد القول والفعلِ

وطوعٌ لما يروم الودادُ ...

فاجرعوا الخمر ، وانقروا الدفَّ...

أَسرعْ! دونك السيفَ أَيها الجلَّادُ

(ستار)

الفصل الثالث

في الهزيع الأخير من الليل . هيرودس وهيروديا
يتسامران ويشربان الخمر في مقصورتها

المشهد الاول

هيروديا ، هيرودس

هيروديا :

أَومأَ الفجر يا حبيب ، وهذا

مضجعي طال شوقه لاحتضانكْ

فترفَّق به ، وراودْ على الدفءِ

وخذني بغامر من حنانك .

وتمتّع ، فكلُّ نبضة عرقٍ

من عروقي الحمراءِ طوع بنانك

تتعرّى فيه اللذائذ أَلواناً

عذارى تنفضُ في أَلوانك...

فإذا ينهدُ النهار وتنأَى

هانئات الأَحلام عن أَجفانك

أَقبلت نحوكَ السماءُ بساطاً

والليالي هنيهةً من زمانك

فتودّ الأَفلاك لو أن منها
كوكباً واحداً على صولجانك !
قم حبيبي ...

هيرودس :

هيروديَا . حسبيَ الخمرُ

هيروديا :

ودفئي ، مولاي ...

هيرودس :

جرْفٌ هارِ
منذ حطَّت عيناي فوقك ساقتني
اليه يد القضاءِ وعاري
فأَراني أَنهار شيئاً فشيئا ...

هيروديا (بذعر) :

أَنت تهذي ، مولاي !

هيرودس (متابعاً) :

نحو القرارِ .

ويحَ نفسي ، تذلُّني بعدُ أُنثى
رغم شيبي ومنصبي واقتداري ...
أَنا لولاك ما رفعتُ يد الظلم
وأَنزلتها على الأَحرارِ ،
لا ولا سبت زوجتي لذويها
في دمشقٍ ، فسارعوا للثار
بجيوش لولا شفاعة روما
لأَغارت تجتاح عقر دياري
فإذا الملْك ، ملْك إسرائيل نهبٌ
للأَعادي ومسرحٌ للدمار ...
أَنا لولاك ما قتلت نبيّاً
كيُحنّا ...

هيروديا :

لولاي ؟ يا للعار !
من تُرى كنتَ يومَ عيناك حطَّت
فوق عالي مهابتي وجمالي ...

كنتَ هاماً يذلُّ من رفعة التاج

وعقلًا يسيءُ للأَفعال .

كنت لا شيءَ ، كنت فيَّ جناحٍ

في البوادي ، أَو قطرة من آلِ

تتلقَّى أَوامر القيصريين

وترضى نصائح الجهّال

أُنظرِ اليوم كيف أَصبحتَ أَهلًا

للمعالي وسيداً في الرجال

رهبتك الأَعداءُ قِبلةَ صيدون

وخلف المجنِّحات الجبال :

من دمشقٍ الى حماةٍ الى آشورَ

شرقاً ، الى اقاصي الشمال .

وتمنّت روما ...

هيرودس (مقاطعاً) :

دعي الآن روما !

واسكتي !

هيروديا :

ما سكتّ...

هيرودس (بضعف):

تعساً لحالي !

أَنا أَهواكِ، يا حبيبة : ما قولي

بلومٍ ولا ملامي بحقدِ...

دارت الخمرة اللعينة في رأسي

فخانت معانيَ القول عندي.

أَنت لي كلُّ ما أَشاءُ من الدهر

تعالي، لا تغضبي، لا تصدي !

لي من الشوق فوق ما وسعت نفسٌ

ودون الرضى بشوق أَشدِّ.

نحن ركنان إن تزعزع ركنٌ

منهما كيف أَسند المُلْك وحدي.

فتعالي...

هيروديا :

دعني !

هيرودس :

تعالي ...

هيروديا :

محالٌ

كيف أَرضاك بعد لومٍ وجحد ...
ذاك حظي : أُبادل الناس خيرا
فأُجازى عليه بالنكرانِ !
ما تزوجتني حناناً وعطفا ...

هيرودس :

بل غراما .

هيروديا :

لا . لا .

هيرودس :

بلى !

هيروديا :

سيَّانِ !

من تُرى أرغمت يديك على القتل:
أنا، ام كرامة الصولجان؟
هيبة الملك تقتضي صولة الحازم
لا رعدة الخنوع الجبان!
أيّ نفعٍ أناله منك، قل لي...
أي نفعٍ: أشقوتي أم هواني؟
إن تكن تبتغي «الدخيلة» زوجاً
هاكها...

هيرودس:

كيف أبتغي!

هيروديا (متابعة):

فكفاني!

منك جبناً.

هيرودس:

هيروديَا لا تزيدي،
خفِّفي عنكِ...

هيرودِيا :

لا . فملءُ لساني

قولةٌ حان أن تقال ، فحسبي

أتلقى الهوان بالإذعان...

هوّذا الأَمس . أنت أدرى ، فتاتٌ

من نوالي وقطرة من دناني ،

حيثما داس موطئي أمرع الحب

ودانت مفارق التيجانِ !

والليالي الملاح لما تزلْ سكرى

بنعمى فمي وطيب احتضاني ،

والأَماني رفَّت على خاطرٍ مني

ولاذت مطواعةً ببناني .

كلَّما أَومأَ الزمان : رويداً

ذهب العمر . قلت : لا يا زماني !

يذهب العمر بي وتبقى على الدهر

ورائي مطارف الأُرجوان

وسجوفُ الديباج ، والمرتمى الرهْج ،
وفضٌّ المباح قبل الأَوان ،
واصطباحُ اللذات بعدُ ولم تغمض
على ٱلقبْلُ شُرَّدُ الأَجفان ...
قلْ ! من اللائموك فيَّ : لئامٌ
شردوا في غياهب البطلان
تَّخذوا الدين شرعة للصعاليك
وباباً للكسب والسلطان...
أَنا للحبّ : ما يضير إذا أَسلمت
نفسي الى الحبيب وشاني ؟
وليكنْ ما يكون.

هيرودس :

مثلُك مثلي

هيروديا :

لا تقلْ ! أَنت خائف متواني.
إنَّ مثلي من لا يهاب من الناس

يصدُّ العدوان بالعدوان
إن تمادت دمشق سرتُ اليها
بالأُلوف الأُلوف من فرساني
أَنشر الرعب في القلوب ...

هيرودس :

وروما ؟

أنتِ أَدرى بالفاتح الروماني
همّه السلم في البلاد ...

هيروديا :

وهمي ...

هيرودس :

طُرِقَ الباب !

هيروديا :

طارقٌ في بابي ؟

هيرودس :

من عساه يكون ؟

هيروديا :

تامار ... هذا

صوت تامار !

هيرودس :

منذراً بمصابِ

حدَّثتني نفسي به. يا إلهي

عفوك الآن ، لا تشدِّد عقابي

(تدخل تامار)

المشهد الثاني

هيرودس ، هيروديا ، تامار

هيرودس :

ما جرى ؟

تامار :

عفوَ سيّدي !

هيرودس :

أيّ خطْبٍ

تامار :

رجلٌ من بيلاطسٍ...

هيرودس :

في طِلابي ؟

أدخِليه . ما يبتغي ؟

تامار :

لست أدري

هيرودس :

ما اسمه ؟

تامار :

لم يقلْ

هيروديا :

إذنْ لا نبالي

من يشأْ حَظوةَ المثول لدينا

فليعدْ في النهار

هيرودس :

بل في الحال !

لا يجيءُ الملوك في الليل إلَّا

من يخال الصباح ليس بآتي.

أَدخليه ، تامار.

هيروديا :

فَلْيَكُ ما شئتَ

(تخاطب تامار)

ونادي سالومَ.

هيرودس :

ما للفتاةِ

ولنا !

هيروديا :

إنها ابنتّي !

هيرودس :

في خطاها

رقص الموت ...

هيروديا :

والهوى والجمالُ

ولها الرأْي مثلنا فهي طودٌ

في الملمّات شامخٌ لا يُنال.

(تحدق بهيرودس)

يا الهي ! هيرودُ. ما لك تنهدُّ

عياءً: أنقمة أَم هزال ؟

شدّد العزم ، يا حبيب ،

هيرودس :

دعيني

خرج الأَمر من يدي.

هيروديا :

لا يُقال

هكذا منك.

هيرودس :

من أَنا في يهوذا

غيرُ مُلْكٍ أَضاعنيه الضلالُ !

في ضميري دمٌ بريءٌ، ذكيٌّ

هيروديا :

بئسَه من دمٍ !

هيرودس :

وبئسَ المصيرُ .

رجلُ الله هو

هيروديا :

تجنَّى علينا

هيرودس :

ما تمادي ...

هيروديا :

فحسْبُه التحقيرُ

بي وبالتاج .

هيرودس :

ما كفى السجن ؟

هيروديا :

كلَّا

إنما السجن للأَبِيِّ الثائرْ
كالإناءِ السديد للخمر يمسي
كلَّما طال جيِّدَ الطعم فاخر .

لا تخفْ ، يا حبيب ، ما دام في القلب

خفوق فلن يضيرك ضائر

لي على قيصرٍ دلال وأمرٌ ...

هيرودس (بهزء) :

وعلى سوريَا ؟

هيروديا :

حسامٌ قاهر !

أَيٌّ شأْنٍ لها إذا هبّ إسرائيل

في صولةِ الزمان الغابر ...

كم رفعنا قِدْماً على أَرض كنعانَ

وآرام موكب الفتح ظافر .

هيرودس :

ذاك قدْماً !

هيروديا :

واليوم ، واليوم ...

هيرودس (بذعر) :

مهلاً

ها همُو قادمون !

هيروديا :

إياكَ ، حاذر !

(يدخل قائد روماني)

المشهد الثالث

قائد روماني ، هيرودس ، هيروديا

القائد الروماني :

لكما المجد والسلامُ !

هيرودس :

وللقيصرِ .

ماذا ؟

القائد الروماني :

مولاي ...

هيرودس (مقاطعاً بإلحاح) :

أَسرعْ . علاما

جئتنا ، والمجيءُ شؤمٌ ؟

القائد الروماني :

سماحاً

جئتُ أَروي أَنباءَ ليلٍ جساما ...

هيرودس (مقاطعاً) :

عن دمشقٍ ؟

القائد الروماني :

أَجل ، إِذِ انقضَّ منها

فيلقٌ حطَّم الحدود وساما

جيشَك الموت ...

هيرودس :

يا إِلهي !

القائد الروماني (متابعاً) :

فلمّا

راودته روما عن الأَمر راما

تركَكَ العرش ...

هيرودس :

تركيَ العرش ... عرشي ؟

القائد الروماني (متابعاً):

أَو يقيم الخرابَ حيث أَقاما

فأَطاعت روما...

هيرودس:

أَطاعت؟

القائد الروماني:

أَطاعت

عن صوابٍ. فخذْه أَمراً لزاما،

أَمْرَ بيلاطسٍ...

هيرودس:

محالٌ!

القائد الروماني:

إذا ما

شئتَ أَلا تُطيع جرَّد سيفاً،

وإذا ما أَطعت أَهدى سلاما

وشراعاً يطوي الى رومة البحر

وصفحاً من قيصرٍ واهتماما.

هيرودس (باستسلام) :

أَين بيلاطسُ؟

القائد الروماني :

بأُورَشليمِ .

هيروديا :

ما وفى ذمةً وراعى ذماما .
سوف يلقى يوماً عواقب فعلٍ
لم يشرِّف روما به والحساما .
كان في وسعه القتال فيلقى
المعتدون اللئام موتاً زؤَاما .
من هُمُو في دمشق؟

القائد الروماني (لهيروديا) :

عفوك ، مولاتي ،
دعي العتْب جانباً والملاما .
ما أَدارت روما عن العدل وجهاً ،
أَو حنت للعدوِّ بالأَمس هاما .

فلئن سايرت دمشقَ ، فأَمرٌ

لا يعيب الإِباءَ والإِقداما :

تُصنع الحرب في الدفاع عن الحقّ...

هيرودس (مـ[illegible]لعاً) :

وحقي في الملْك ؟

القائد الروماني :

حقٌّ ترامى

عند أَقدامِ ظافرٍ ملك الارضَ

قديماً : كنعانها وأَراما .

هيرودس (بحنق) :

بئس ما تدَّعيه ! رحْ من أَمامي...

رُحْ !

القائد الروماني (يتراجع نحو الباب) :

تبصَّر ، هيرود !

(يخرج وتدخل سالومه مسرعة تتبعها تامار)

المشهد الرابع

هيرودس ، هيروديا ، سالومه ، تامار

سالومه :

أُمي ... تعالوا

وانظروا كيف أَحدق الجند بالقصر ...

هيرودس (مقاطعاً بلهفة) :

جنودي ؟

سالومه (متابعة) :

وأَوشكت تنهالُ

ضربات الردى علينا ...

هيرودس :

وشعبي ؟

سالومه :

ناقمٌ !

هيرودس :

ناقمٌ عليَّ ؟

سالومه (متابعة) :

ينادي

إقطعوا رأْسه فداءً ليوحنَّا...

هيرودس :

إلهي !

سالومه (متابعة) :

ورحمةً بالبلادِ

هيروديا :

خسئوا ! عند قيصرٍ مقبضُ السيف

وعندي ، إما أشاء...

هيرودس (مقاطعاً) :

قيادي !

هيروديا :

« حدُّه » ما أَقول ، هيرود .

هيرودس :

ويحي

أَوقع الدهرُ بي وبالملك بعدي .

فغداً تنهض الصعاليك في الأَرض

وتبني أَكواخها فوق مجدي ،

وتموت الدُّنى – تموت وتنشقُّ

السماوات عن إلهٍ جديد...

(يتعالى ضجيج الغوغاء ، يلتفت هيرودس إلى هيروديا)

ها همُ الخالقوه والقاتلوه

منذ كانوا حتّى زوالِ الوجودِ

أَو زوالِ اسمهم ، فلا تُذكر «اسرائيل»

إلا على شفاه العبيد !

(يلتفت الى هيروديا)

ههنا مولد الخطيئة : أُنثى !

دونكِ الشمس مزِّقيها وسودي

وارقصي في الظلام ، في الدَّمِ ، في الموت...

هيروديا (ترتمي أمامه)

رويدا هيرود... رحماك !

سالومه (تسرع نحوها) :

أُمي !

هيرودس :

إنهضي. إنهضي. أَنا العاثر الجاني
تعلَّقتُ في الحياة بوهمٍ:
بكِ، بالمجد، بالغنى. فكلانا
قبضُ ريحٍ إذنْ، وأَضغاث حلم.

(ستار)

بيروت ١٩٤٧
نيويورك ١٩٥٣

البئر المهجورة

(١٩٥٨)

سأَلناكَ ورْقة تينٍ
فإنَّا عراةٌ ، عراةْ .
أَثمْنا الى الشعر ، فاغفرْ لنا
وردَّ إلينا الحياةْ .

لكَ الوعدُ : إنَّا
سنبني بدمع الجبينْ
عوالمَ للشعر من عبقرٍ
مفاتيحهنَّ .

جراحُك للأَوَّلينْ
عزاءٌ ودربُ خلاصٍ لنا .

إذا صلبوك هناك: اليهودُ ،
فإنك تُبعثُ حيًّا هنا.

دارتي السوداءُ ملأَى بعظامٍ
عافها نورُ النهارِ ،
منْ يواريها الترابا ؟
علَّها تُبعث يوماً ،
تدفع الصخرةَ عنها .
آهِ كانت كائناً يملأُ جفنيه الظلامُ ،
أبكماً كالجدَث المغلق ، مشلولاً ، كسيحاً ،
راح يستعطي على عرض الطريقِ .
آهِ كانت كائناً لا كونَ فيه .
عدَماً يرقص في جفن الغريقِ !
ليته ما كان يوماً ،
ليته ما كان يوماً هكذا .

ليته ما كان ، بل ظلَّ بأَحضان الرمالِ .

يا صديقي . أَنا لا أَندبُ حالي ،
أنا لا أعرف حالي :
العصافيرُ بنتْ أَعشاشها
حيثما حطَّتْ بها ريح الشمالِ .
وأَنا في هذه الدارة وحدي
جاثماً كالهمّ . كاللعنة . كالخوفِ
على صدر الجبانِ ،
جاثماً كالموت في البرهة في كلِّ مكانِ ،
جاثماً بين العظامِ .
ليت من يجرؤ ، من يقوى
على طمر العظامِ !
أَنا لا أَجرؤ ، لا أَقوى على
طمر العظامِ :

قبضتي كلَّتْ وأظفاري براها
الزحفُ من دارٍ لدارِ .
منذ ما سمّرتُ في الحرْف مصيري .
منذ ما أَطفأَتِ الريحُ على الشطِّ مناري .

أَتراني أَهجر الدار وأَمضي ،
« يدفن الأَمواتُ موتاهم » وأَمضي ؟
أَين أَمضي ؟
أَإلى المأْتم في الغابةِ والميتُ إلهُ ؟
أَإلى العرس ، وما
في العرس خمرٌ ومسيحُ ؟
أَم تراني أَلزم الصمت وأَبقى ،
مثل آبائيَ أَبقى ،
جاثماً بين عظامٍ
عافها نور النهارِ ،

ملَّها عتْم الليالي .

والعصافير بنت أَعشاشها

حيثما حطَّت بها ريح الشمالِ ؟

.
،

آه لا أَدري . ولكني أصلِّ !

عرفتُ إبراهيم، جاريَ العزيز، من زمانٍ.
عرفته بئراً يفيض ماؤها
وسائرُ البشرْ
تمرُّ لا تشرب منها، لا ولا
ترمي بها، ترمي بها حجرْ.

«لو كان لي أن أنشر الجبينَ
في سارية الضياء من جديدٍ»،
يقول إبراهيم في وُريقةٍ
مخضوبةٍ بدمه الطليلِ:
«تُرى، يحوّلُ الغديرُ سيرَه كأنْ
تبرعم الغصونُ في الخريف أو ينعقد الثمرْ،

ويطلع النباتُ في الحجرْ؟

«لو كان لي ،

لو كان أنْ أموت أن أعيش من جديدٍ ،

أتبسطُ السماءُ وجهها ، فلا

تمزِّق العقبانُ في الفلاةِ

قوافل الضحايا ؟

أتضحك المعاملُ الدخانْ؟

أتسكتُ الضوضاءُ في الحقولِ ،

في الشارع الكبيرِ ؟

أيأْكل الفقيرُ خبز يومه ،

بعرق الجبينِ ، لا بدمعة الذليلِ ؟

«لو كان لي أن أنشر الجبين

في سارية الضياءِ ،

لو كان لي البقاءُ ،
تُرى ، يعود يولسيسُ ؟
والولدُ العقوقُ ، والخروفُ ،
والخاطئُ الأُصيبَ بالعمى
ليبصرَ الطريقا ؟ »

وحين صوَّب العدوُّ مدفع الردى
واندفع الجنود تحت وابلٍ
من الرصاص والردى ،
صِيح بهم : « تقهقروا . تقهقروا .
في الملجإِ الوراءَ مأْمنٌ
من الرصاص والردى ! »
لكنّ إبراهيمَ ظلَّ سائراً ،
إلى الأَمام سائراً ،
وصدرُه الصغيرُ يملأُ المدى !

«تقهقروا. تقهقروا.

في الملجإِ الوراءَ مأْمنٌ من

الرصاص والردى !»

لكنَّ إبراهيمَ ظلَّ سائراً

كأَنه لم يسمعِ الصدى.

وقيل إنه الجنونُ.

لعلَّه الجنونٌ.

لكنني عرفت جاريَ العزيز من زمانٍ،

من زمن الصِّغَرْ.

عرفته بئراً يفيض ماؤها،

وسائر البشرْ

تمرُّ لا تشربُ منها، لا ولا

ترمي بها، ترمي بها حجرْ.

في الصيف تسأَل الجذورُ عن مصيرها ،
والنهرُ لا يجيبُ :
غصّت به العيونُ في الجبالِ أَم
تلقَّفته في الهجير تربةٌ ؟ فمن
يجيب هذه الجذور عن مصيرها ؟
يحضنها في زمن الخريفِ ؟ يدفع عنها
قسوةَ الشتاءِ يا ترى ؟

الورق الذي يهزُّ جسدٌ ؛
والسرُّ في الجذورِ .
وفي الجذور أَمسنا ؛
وفي الجذور غدنا :

هنا الثمار بلحٌ وبرتقالٌ ، وهناك
عنبٌ يعصره السُّقاةُ خمرةً .
وحيث يكثر الجراد لا ثمارَ بل حصىً .
وعبثاً نصيح : نحن كالرياحِ
ـ ةً تجيءُ من مكانها وحرةً تروحُ .
ونحن يا رفيقيَ الغريب نعمر الثرى .
لنا التراب بيتُ رحَمٍ وكفنٌ ،
وفي التراب تهبط الجذور صُعُداً .
فالأَرض مولدٌ ، حصادُ .

ها نينوى !
فاجأَني الدليلُ صائحاً : ها نينوى !
ومرةً عرفتُ في النقوشِ
وجهَ صاحبي ، لمسته براحتيَّ
قائلاً : « هنا الصدى يطولُ .

والخاطرُ الذي يمرّ قطرةٌ

يشربها الترابُ ،

يحضنها العبابُ ، لا تزولُ .

ما كان لا يصيرُ ،

لا تنعق البومةُ في دياره

ولا يحوم حوله الغرابُ .

كل زمانٍ أبدٌ ،

وكلّ رحلةٍ إيابُ . »

وحيثما التفتُّ صُوَرٌ

حفرها الزمان ، لا تزولُ .

لا شيءَ ههنا يزولُ :

تقول جدَّتي : «حفيدُها كجدِّهِ :

يسير تاركاً يديه في الفضاءِ ،

ويؤثر المبيت باكراً .

والصبح ، حينما يفيق ، غابةٌ

من الحراب حول جفنه ».

وفي دمشق أبصرت عيناي سنحريب جاثماً

والموت في خيامِهِ ،

وفي الطريق ألفُ شبحٍ وشبحٌ ؛

وها هي الوجوه خزفٌ . قماقمٌ

والخاتمُ اللبّيكُ صدىٌ ،

والبُسُطُ الريحُ استحالت طائرا ،

عجلةً تدور والزمانُ واحدٌ ؛

وشهرزاد ما تزال تسرد الحياةَ ههنا حكايةً .

وشهرزاد جسدٌ ،

كالورق الذي يهرّ ، جسدٌ

والسرُّ في الجذورِ .

وعبثاً نصيح : نحن كالرياح

حرةً تجيءُ من مكانها وحرةً تروحْ .

لنا التراب بيتُ رحمٍ وكفنٌ ،

والموتُ وحده البقاءُ.

رجلايَ في الفضاءِ والفضاءُ هاربٌ ،
وليس لي جناحُ.
الشمس لا تدفئني ،
ولا تغطِّي جسدي الرياحُ.
ليت الذي علَّقني هناك شدَّ حول عُنُقي ،
بل ليته سمّرني.
بل ليته ، حين كفرتُ بأَخي ، طردني.
هنا هنا على التراب جبهتي
وفي التراب قدمي ،
وقدمي هياكلٌ ومدنٌ
ودمعةٌ هي الفراتُ تارةً
وهي البحار تارةً ،
وقدمي دمٌ وقبلةٌ.

وقدمي صلاةُ :

ربَّاه دعني ههنا ،

ربَّاه دعني ههنا لديك ، دعني

ههنا على التراب : هذا الكوكب

الذي صنعتُ آخرٌ :

زنابق الحقول لا تريده

ولا الخراف في حظيرتي تريده

ولا أنا أُريده ،

وأنتَ يا من شئتَني

من التراب لا تريده .

حين صعدتُ الجبل الأَول مَن

علَّمني الصعودَ ، مَن أعانني

على النزول ، مَن أعادني إلى المكان عنوةً ،

مَن يا ترى صيَّرني ؟

ربَّاه دعني ههنا

ربَّاه دعني ههنا على التراب بيتَ رحَمٍ وكفناً ،
فالأَرض وحدها البقاءُ .

أَوّاه ، يا صديقيَ الغريب . نحن جسدٌ
كالورق الذي يهرُّ ، جسدٌ
والسرُّ في الجذورِ .
وها هيَ الجذورُ تسأَل الترابَ عن مصيرها ،
والنهر لا يجيبُ .
في الصيف لا يجيبُ .
من يا ترى يجيب هذه الجذور عن مصيرها ،
يحضنها ،
يردُّ عنها قسوة الشتاءِ . والربيعُ مقبلٌ ،
لا بدَّ مقبلٌ ،
من القبور والحقول مقبلٌ .
فالموتُ والحياةُ واحدٌ ،
والأَرضُ وحدها البقاءُ .

كان حيّاً. أمسِ شقّ الفجرُ عينيهِ .
مضى يحملُ قلباً ضاحكاً للنور ، للدفءِ ، مضى
يرفعُ زنداً ، يضربُ الارضَ بكلتا قدميهِ .
يصفعُ الريحَ على خدّيهِ ، يجري .
قيلَ نهرٌ دافقٌ. قيلَ سكونٌ
حرّتِ الرؤيا به . أو قيلَ شيءٌ
لا يكونُ الكونُ لولاهُ ، أيمضي ؟
هكذا يمضي ، ولا يمضي سواهُ.

يا إلهي . حينما ماتَ ألم
يشفعْ به حسنٌ؟ ألم يشفعْ
به سعيٌ الى الأسمى ؟

بلى ، سعيٌ الى الأَسمى .
فيا ما مزّق الشوكُ يديهِ ،
وقسا الدربُ عليهِ .
ولكم شيَّد ، كم هدَّم ، كم
ثار على الشيءِ إذا ضنَّ ، إذا
جفَّ ، إذا هِيضَ جناحاه .
وكم تاق إلى الفعل ، فأَعلى
هرماً ، أَو أَنزل الله على الأَرضِ .
إلهي ، حينما ماتَ أَلم
يشفعْ به الوهمُ الذي كانا .

أَما والآن قد مات ، فهل
تحيا أَمانيه ؟ تناجيه عروسُ الجنِّ ؟
تحمرُّ الثمار الخضر في الوادي ؟
أَيدري النجمُ ؟ يأْتيه

مجوسُ الشرق والغربِ؟

إلهي، أَغلقِ القلبَ على السرِّ ودعني

أَجمعِ الذكرى بعينيَّ، بوعيي،

لا لأَطويها.

«حياتي لم تعدْ شيئاً.

تُرى موتي هو الشيءُ؟»

ففي الموت عرفناه،

وما كنا عرفناهُ.

وحقُّ الشيءِ أَن يُعرفَ،

كالحبّ الذي يُعطى،

أَو الخيرِ الذي يُرجى.

عرفناهُ؟

عرفنا ذاتنا فيهِ:

عالمٌ أَوصدها النسيانُ: لا

وقعَ حصاةٍ، لا صدىً.

عالمٌ مات به جرحُ الخطايا.

ولكم كان يصلِّي:

«مُدَّ لي يا ربُّ شطآنَ خلاصي.

ها أنا أركضُ في الارضِ

وأَقدامي حديدٌ، وعلى دربي حديدٌ.

خلِّني أَمشي على الماءِ قليلًا.

بعد حينٍ يقفر الحيّ

وظلِّي يستطيلُ.

هوّذا الريحُ تعرّيني، تعرّي

جسدي. تُلهب روحي.

وصراخي بُحَّ في الغربةِ. آهٍ،

ليست الغربةُ مني،

لا ولا العودةُ مني.

ويدي حيرى وأَطفالي

حفاةٌ فوق جفني .

مدّ لي يا ربّ شطآنَ خلاصي . »

هكذا كانَ يصلّي .

وفقدناه .

كانت الأرض شتاءْ .

كان موج البحرِ يرتدُّ

عن الشطِّ عياءْ .

كان جوعٌ وصقيعٌ .

كان في المرعى ذئابٌ .

آهِ . كان الرعب في الحيّ شديداً .

بغبغابغ ...

بغ ... بغا ... بغ

والكوى مغلقةٌ والسورُ ينهارْ

ووجهُ الشمس زوْرُ ،

هل هي الأَرضُ تدورُ ؟

بغ ... بغا ... بغ

بغ ...

بغبغا ... بغ !

أَتُرى هذا الذي مات إِلٰه ؟

١

متى تُمحى خطايانا ؟
متى تُورق آلامُ المساكين ؟
متى تلمسنا أصابعُ الشكّ ؟
أأمواتٌ على الدرب ولا ندري ؟
توارينا عن الأَبصار اكفانٌ
من الرمل ، غبارٌ ذرّه الحافرُ
في ملاعب الشمسِ .

تقول لي :

أنا لمّا أزل طفلًا ، تأمَلْني
فللطوفان آثارٌ على قميصيَ الرطْبِ ،
وفي عينيَّ أسرارٌ

عذارى لم تفقْ بعدُ ، تباريحٌ
سكبنَ الدمعة الأُولى ، جراحاتٌ
ملأْنَ جسميَ الغضَّ وما زلنَ.
أَعطشانٌ ؟ خذِ الصخرة واضربْها ،
أَفي العتمة ؟ دحرجْها عن القبرِ.
وإما عضَّك الجوع فهاك المنّ والسلوى ،
وإما صرتَ عرياناً
فخذْ من ورق التين رداءً
يسترُ الإثمَ ، يواريه عن الناسِ.
وفي التجربة الكبرى
تصبّر صبرَ أَيوبٍ ولا تهلعْ
إذا ما استفحل الشرُّ:
صليبُ الله مرفوعٌ على رابية الدهرِ.
وفي الشطِّ منارات متى ضاعت
ضربنا جبهةَ الفجر بأَيدينا ، وفجّرنا

من الصخرة ماءٌ يجرف الرملَ
الى البحرِ. وفي الأُفق جناحَا طائرٍ
حطَّا على جمجمة الليلِ ،
وفيه نجمةٌ سمراءُ تروي قصةَ
المزود للرائح والغادي. وفي السرِّ ،
متى يعرى ، إلهٌ ملأَ العينَ ،
إلهٌ لم يمتْ بعدُ ، إلهٌ سكبَ
الحبَّ على الجرحِ .

11

وفي دربي

تماسيحٌ وأشباهُ تماسيحٍ ،
وبومٌ ملأَ الدارَ ، وغربانٌ .
وغيمٌ أَسودٌ ينذر بالطوفان ، بالموتِ
على قارعة الدرب : عظامٌ يبستْ

في الذلّ ، في الوحدة ، في الآنِ .
وهذا الزاحفُ العاري أإنسانٌ ؟
أإنسانٌ على شاكلة الله ؟
أراه قُدَّ من لحم الشياطينِ ،
أراه ذبح التنينَ في الغابِ وأجرى
دمه في الأرض يروي
غلَّةَ الظامئ للفتح ، لكونٍ
يبدأُ البدءُ به بعدُ .
أراه حمل الأرض بكفّيهِ ،
رماها في الدهاليز ، بنى كوخاً
من الفولاذ لا يدركه الموتُ
أوِ السرُّ . أراه أفرغ البحر
بعينيهِ ، وأخفى رأسه في الرمل
خوفاً من أعاديه : ترى ، هل يبصر
الأعمى أعاديهِ :

عروقٌ لم تعدْ

تنبض بالحبِّ أوِ البغض ،

لسانٌ ناطقٌ إلا

بما كان له النطقُ ،

وعقلٌ تاه في الدربِ ، ولا دربُ .

III

عبيدٌ نحن للماضي ، عبيدٌ نحن

للآتي ، عبيدٌ نرضع الذلّ

من المهدِ الى اللحدِ. خطايانا ؟

يدُ الأَيام لم تصنع خطايانا .

خطايانا صنعناها بأَيدينا :

لعلَّ الشمسَ لم تشرقْ لتحيينا :

هنا مقبرةُ النور ، هنا الرملُ ،

هنا يستنسرُ البُغاثُ ، تفنى القمحةُ

الأُولى. هنا ينعدم الشكُّ،
يموت القولُ في الأَلسنة الحقِّ.
صليب الله لم يمحُ خطايانا.
فهل تُمحى إذا ما سابقَ
الريحُ جناحانا. إذا ما انفضّ
ختمُ السر أَو دانت لنا الدنيا؟
غدي ضربُ مواعيدٍ مع الوهمِ.
وهذا شأْنُ أَجدادي من البدءِ:
غرابُ البين لم يرحمْ ضحايانا
ولم ينهض من القبر سوى اللهِ،
سوى شيءٍ هو اللهُ. أَكلنا لحمه
خبزاً، شربنا دمه خمراً؛
فما أَشبعنا الخبزْ
ولا أَسكرنا الخمرُ.
وهلَّا ينفع الضوءُ

إذا ما خُبِّئَ الضوءُ بمكيالٍ؟

VI

تُرى يُدركنا الموتُ كما نحنُ
حيارى؟ لا الذي صار فهمناه،
قبلناه، ولا ذاك الذي كانَ.
كفرنا، لا يدُ الإيمان تفدينا
كإسحٰقٍ ولا شفاعةُ الحبِّ:
وما زال صليبُ الله مرفوعاً
على رابية الدهر. به تمحى خطايانا.
به تورقَ آلامُ المساكينِ.
به تلمسنا أَصابعُ الشكِّ
وتُطوى سيرةُ الموت على الارضِ.

وأدرنا وجوهنا : كانت الشمسُ
غباراً على السنابكِ، والأُفقُ
شراعاً محطَّماً . كان تموزُ
جراحاً على العيون وعيسى
سورةً في الكتاب .

ـ واهاً لدنيا

من بخورٍ، من خمرةٍ، من رخامٍ
تختفي . تختفي على وَهْجِ دنيا
من نخيلٍ بروقُها وهجيرٍ
وحروفٍ محفورةٍ في السماءِ.
ليت ذاك النهارَ لم يكُ : أنظرْ
كيف غارتْ جباهُنا . كيف جفَّتْ

في شرايينا الدماءُ ، وكيف
انبحَّ فينا صوتُ الأُلوهة ، أُنظرْ
هوذا الدربُ موحشٌ ، ورحابُ
الدار قفرٌ ، والشطُّ مضجعُ رملٍ
هجرته الأَمواج .

يا نفسُ بوحي
بالذي صار ، مزّقي الحُجُبَ السودَ ،
أَطلّي على الجديد وثوري
يفتحِ الشاطئُ الخلاصُ ذراعيهِ
وتعلو على مداه السفينُ .

أيها البحرُ . أيها الأَملُ البحرُ
ترفَّقْ بنا ، ترفَّقْ . ترفَّقْ !
ما أدرنا وجوهنا عنك إلا
بعدما مزَّق السياطُ ضحايانا

ولم ترحمِ العبيدُ الجراحا ،

وهي حُبلى .

كلُّ الجراحات يا بحرُ

حَبالى . ونحن مهدٌ عريقٌ

للولادات : أيٍّ ، أيٍّ إلهٍ

ما رأى النورَ بيننا ، ما تربّى

كيف يحيا ، يشقى ، يموت .

ونحنُ

الشيءُ يا بحرُ ، من زمانٍ قديمٍ

وبنونا حجارةٌ للزمانِ ،

والقبابُ التي تسيِّج واديكَ

حضورٌ لديكَ : في كل حَوْزٍ

من حماها حكايةٌ . يا عجوز

الدهر قُصّي ، قصّي حكاياتِ أمسٍ

ما طوتها كفُّ الرمال الضريره :

أَلفُ جيلٍ يردُّ في أَلف جيلٍ
ردّةَ الموج في المياه الأَسيره .

أَيها البحر ، يا ذراعاً مددناها
الى الله ، رُدَّنا لك ، دعنا
نستردّ الحياة من نور عينيك
ودعنا نعود ، نرخي مع الريح
شراعاتنا ، نروح ونغدو
حاملين السماءَ للأَرض دمعاً
ودماءً جديدةً .
هذه الارضُ
مواتاً أَمست . وأَمست عروقاً
من حديدٍ : أَنّى تلفتّ منها
غربةٌ بابلٌ ، وتلك السبايا
رضيَتْ أَن تظلَّ تركع للعجلِ

وتحني رقابها للخطايا .

آهِ تحني رقابها للخطايا .

والصدى ما يزال يَرْجَعُ : يَمْتَدُّ

« اصلبوه . اصلبوه ! »

ما للضحايا

منذ هابيلَ ، منذ سقراطَ يا بحرُ

رغيفٌ وخمرةٌ للبرايا .

ليت ذاك النهارَ لم يكُ ، ليت

العينَ ما أَغمضت عليه – سوادُ

الموتِ أَبهى – ليت الوجوهَ الأَدرناها

استحالت ملحاً .

أَلا من ينجّي .

من يعيد الرجاءَ غيرُك يا بحرُ .

دعوناكَ فاستجبْ لدعانا .

وفي النهار نهبط المرافئَ الأَمانَ

والمراكبَ الناشرةَ الشراع للسَّفَرْ .

نهتف يا ، يا بحرنا الحبيب ، يا

القريبُ كالجفون من عيوننا

نجيء وحدنا ،

رفاقنا الوراءَ تلكمُ الجبالِ آثروا

البقاءَ في سُباتهم ونحن نؤثر السفرْ .

أَخبرنا الرعاة ههنا

عن جزُرٍ هناك تعشق الخطرْ

وتكره القعود والحَذَرْ ،

عن جزُرٍ تصارع القَدَرْ

وتزرع الأَضراس في القفار مُدُناً ،

حروفَ نور تكتب السِّيَرْ

وتملأُ العيون بالنظرْ .

بها ، بمثل لونها العجيب يحلمُ

الكبار في الصِّغَرْ .

إذَّاك نصعد المراكبَ الحاملةَ

الزجاجَ والصنوبرَ ، الحاملةَ الحريرَ

والخمورَ من بلادنا ، الحاملةَ الثمرْ .

نصيحُ يا مراكبُ !

يا سُلَّماً يرقى بنا ،

يصِلُنا بغيرنا ،

يأْتي لنا بما غلا ،

يأْخذ منا ما حلا .

يا أنتِ يا مراكبُ ،

جئناكِ وحدنا .

رفاقنا الهناكَ آثروا
الهجير والنقيق والضجَرْ،
ونحن نعشق السفرْ.
أخبرنا الرعاة في جبالنا
عن جزرٍ يغمرها المطرْ،
يغمرها الغمام والخزام والمطرْ،
عن جزرٍ يسكنها الحضَرْ.
بها، بمثل لونها الغريبِ يحلمُ
الكبارُ في الصِّغَرْ.

وقبلما نهمُّ بالرحيلِ نذبح الخرافَ
واحداً لعشتروتَ، واحداً لأَدونيسَ،
واحداً لبعلَ، ثم نرفع المراسيَ
الحديدَ من قرارة البَحَرْ،
ونبدأُ السفرْ:

هلّلويا .

هلّلويا .

وفي هنيهةٍ تغيب عن عيوننا

الجبالُ . والمرافئُ الامانُ ، والمرابعُ

المليئةُ اليدينِ بالزهَرْ :

هلّلويا .

هلّلويا .

هلّلويا .

ونبدأُ السفرْ

وسيرةَ الرجوع والصراع والظفَرْ .

غداً يعود سيّدي.

شراعُه كغيمةٍ بيضاءَ عند الشَّفَقِ.

أَعرفه متى يلوح، كيف لا؟

خيوطُه أنا، أَنا غزلتُها ـ أَصابعي،

حبكتها، غسلتها بأَدمعي.

فكيف لا أَعرفه

متى يلوح في البعيد آتياً

كغيمةٍ في الأُفُقِ؟

غداً يعود سيّدي،

يعود. يا هلا!

من المجاهل الوراءَ قبرصَ الحبيبةِ،

الوراءَ قرطاجنَّةٍ يعود لي:

جبينُه العريق وجهُ جبلٍ .

وزرقة الخضمّ ، عمقُه السحيقُ

في عيونه – يعود لي

محمَّلاً بالذهبِ ،

بفضَّةٍ تُصاغ للهياكلِ

الرُّخام ههنا مجامراً ،

للبطل الإله مقبضاً لِسيفه ،

محمَّلاً يعود سيدي

بالعاج صولجانَ مَلِكٍ ، سريرَه

بالجوهر الغريب خاتماً له ،

فرائداً لتاجه .

محمَّلاً يعود سيدي

بالشوق لي . والأَملِ .

أَنا أَجينار على مدّ يدي

تبوحُ أَلفُ جنّةٍ

وأَلفُ خاطرٍ معطَّرِ.

أَنا الجمالُ: يا جداولَ النبيذ جُدّلتْ

على اللُّجينْ، يا شواطئَ العقيق، يا فمي!

نهدايَ لجَّتان: في الجزائر العجابِ

والخليجِ نجوةٌ، فيا زوارقُ احتمي!

هنا القفير عسَّلتْ،

والكرْمُ عنَّبتْ ثمارُه...

حذارِ! هذا حَرَمٌ

لسيدي الحبيب، يا هلا!

من المجاهل الوراءَ قبرصَ،

الوراءَ قرطاجنّةٍ يعود لي

مكللًا بالظفرِ.

بالله يا رياح لا تمهَّلي:

الليلُ طال في السهولِ

والنجومُ احترقت على الربى.

خوفي على الأَسوار أَن تهونَ،

والحياضِ تُستباحَ بغتةً.

بالله لا تمهَّلي،

ردّي الحبيبَ لي،

ردّيهِ كالإِله من غيابه:

أَحضنه، أَغمره بقُبلي

بطيبِ طيبِ قُبَلي.

وفي نعيم جسدي

أُسكنه للأَبَدِ.

قَصَائِدُ في الأربَعِين

(١٩٦٠)

أعمى

أَبحث عن أَحدٍ يبصرني
عن شيءٍ أَحسبه عندي
هذا العالم أُنثى
لعبتْ بالغيمة فاضطجعتْ
فيئاً في الرَّبْع الخالي.

أَحويكِ وأَعلم أَن الجمرَ
يبرّدني. أَسحبُ أَنفاسي ودمي
أَغرق في وهَجٍ
في خمرة عرسٍ، في أَبدِ
أَغرق في جسدِ

للصينِ سياجٌ من عسلٍ

وأنا جنكيزٌ خيلي

أرجلها قصبٌ

فرساني حبلُ رجاءٍ يَقْطَعُهُ

سيفٌ ذهبٌ.

هذا العالم أنثى

لعبتْ بالغيمة فاضطجعتْ

فيئاً في الربع الخالي.

على ملاعب العروقِ
يا صبيّةُ ارقصي
حياتُنا غبارْ
والليلُ والنهارْ
سريرُنا
قومي اليه وافتحي
بوّابة السماءْ
واضطجعي
ستحبل الحجارُ من عناقنا
ويُولد الرجاءْ.

تسمّري يا نجمة الميلاد

فوقَ مزودي. فكلُّ شيءٍ ماتْ

لو علم المجوس حين أَقبلوا

وقدّموا الهباتْ.

تسمّري: هذا النداءُ كاذبٌ

بشراكِ يا قبورْ

لن يوقظَ العظامَ ساحرٌ

لن يُحرَقَ البخورْ.

قومي هنا واضطجعي.

عرّي غصون يومك الكئيبِ

قلّعي جذوره معي

وعانقي التراب في رجولتي

في جسدي.

وخلفَ هذه الرِّحابْ

مدّي شراع وجهك الصغيرِ

وارحلي... بلا إيابْ.

تساقطي يا نجمة الميلاد. يا

مجوس لا. عطاؤكم هباءْ.

السيف لا يرتدُّ عن جراحنا

لا يرتوي دماءْ

وتحبل العيونْ بالصدى. ولا

حصاةَ في النهَرْ

كأَنَّ في السفوح بَرَصاً وفي

فم المدى حَجَرْ.

قومي هنا واضطجعي

حياتنا غبارْ

على ملاعب العروق يا صبيّتي

حياتنا غبارْ.

قالت يكفي

قالت يكفي
في شفتي وجعٌ
في نهدي وجعٌ
كلّي وجعٌ
يكفي
أطفئْ مصباحك، نمْ
في الفجر سوادْ.

سأنامْ
وينام معي العالمُ
لا أحلامْ
توقظنا. يوقظنا موتُ الاحلامْ.

اليقظةُ غابٌ يحترقُ

ستصيرُ رمادْ.

هنيهةً ويمسح المناءُ جبهتي

يضيئها . يرفعها منارةَ .

هنيهةً ونلتقي .

ونلتقي ونحن عالَمان يولَدانِ

لم تُحدَّدِ التخوم . لم

تُكتَشَفِ المجاهلُ .

هنيهةً ويصبحان واحداً

وتفضح العيون ما يخبئان ، ما هما

وكيف يُجمَعان .

هنيهةً ، ومنذ ما ولدتُ يا حبيبتي

أعيش هذه الهنيهةَ التي

أَبتْ أَن تنقضي.

أَعيشها كولدٍ، كوالدٍ

كشاعرٍ يريد أَن

يختصر الوجود كلَّه

بكلْمةٍ. أَعيشها وفي فمي

مرارةٌ وبسمةٌ، وفي عيوني دمعةٌ

وحُلُمٌ بأَنها ستنقضي

فهل تراها تنقضي

وهي التي لو انقضتْ

وصار عالمانا واحداً

وارتفع الستار عمَّا نجهلُ

ماذا عسانا نفعلُ؟

أَخاف يا حبيبتي

أَخاف أَن تكون

هذه المنيهة التي نعيشها
هي الحياة كلُّها
هي الأنا والأَنت يا حبيبتي
وما الوراءُ إلا ظلمةٌ
كالموت . كالإله . لا نعرفها
والخير قد يكون أن
نظلَّ لا نعرفها .

هنيهةً ونلتقي لأَننا سنلتقي .
فنحن إنما نحبُّ مثلما نعيش
مثلما نموت ، يا حبيبتي
والكون هكذا يكون ، لا يكون .

الليل لا يطولُ يا حبيبتي ،
الليل في احتضارْ .
وها أَنا ممدَّدٌ
وكلُّني انتظارْ :
عيني على الشبّاك يا لخيبتي
والقفلُ لا يُدارْ .

السقف فوق جبهتي
أَخاف أَن ينهارْ
على الجدار صورةٌ
بأَحرفٍ من نارْ –
أَوّاه يا حبيبتي

أَيسقطَ الجدارْ ؟

الليل لا يطول يا حبيبتي .

ما دمتُ في انتظارْ !

الأَمس هنا علَّيقةُ نارْ

والأَرض حرامْ

فحذاركِ تقتربي

الليل البارحةَ انهار على وجهي

أَصبحتُ دخانْ

(يا ليلُ الصبُّ متى غدُهُ)

لا ، أَصبحتُ ستاراً يرتدُّ

على أَمسي. أَيزول غداً

كجبالٍ يسكنها القيظُ –

تصبح حنانك يا ربي

طال غيابُ الامطارِ

ذاب الثلجُ

فحذارِ ، حذارِكِ ذاب الثلجُ
والذئبُ تروّعه الشمسُ.

أوّاه، أتجبلُ كفّي الطينَ ، متى ؟
ومتى أنفخ فيه الروحَ ، متى أصنعُهُ
شيئاً كالشمس إذا تغربُ
كالفجر إذا يطلعُ
كالظُّهر إذا يمحو ظلّي.
أوّاه متى أحيا
حتى ترتاح الأرضُ
وينابيعَ العطرُ
وتموتَ الدودة في الحقلِ.

قولي ، سيدتي :
أيحبّ ؟ يرقد ، يرقد كالطفلِ

فوق الصدرِ ،
يحلمُ بالبحر وقد أغفى ؟
قولي : أَيصبُّ الثلج على النارِ ؟
يا للنَّارِ !
وأَنا الأَنهارُ وقد غاضتْ ؛
أَيامُ الصوم وقد طالتْ ،
الغابةُ يملأُها الرعبُ
حين يجوع بها ذئبُ :
وأَنا المفتاحُ ولا بابٌ
لا بابٌ
لا ... با ...

الدرب طويلٌ صاحَ
وأَوقف مشيتَهُ ،
الدربُ طويلْ

والأَرض تزمٌّ ، تمزّق سترتها ، تعرى
عاهرةٌ
أُنثى
رجلٌ تـأْكله الشهوةُ
يفنى
أَرضٌ عطشى
سيدتي ، أَرضٌ عطشى
والنهر حصى
لا أَبيضَ لا أَخضرَ في الحقلِ
والنار تصيحْ
تحت العلَّيق تصيحْ
الأَرض حرامْ
سيدتي ، هذي الأَرض حرامْ
فحذارِ ، حذاركِ تقتربي .

وجلستُ على الحائط وحدي
فليقفزْ غيري
حزنتْ نفسي
كلَّتْ
طال الصمتُ على الصوتِ
يا أَسودُ يا شعرُ
يا أَسودُ ، يا أَسودُ
يا أَسودُ يا شعرُ
طال الصمتُ على الصوتِ
وكلانا أَبيضُ كالآهِ
كالآهِ على شفة الطفلِ
والموجةُ تغرق في الرملِ .

الأَمس يزولْ
لا شيءَ مع الأَمس يزولْ
فحذارِكِ تقتربي !

أحبّه غفا

غفا على فمي

أَفاق في دمي

وهمَّ ...

لا ، حذارِ

علا ، علا جداري

لا ريحَ في الشجرْ

لكنَّه أَبى ، أَبى

ولجَّ وانتظرْ

أُحبُّهُ ، أُحبُّهُ

غرقتُ في الدموعْ

نذرتُ حاضري له
أَضأْتُه شموعْ
لكنَّه مضى ، مضى ،
مضى بلا رجوعْ

أَنا خرافةٌ
والحبُّ لا يكونْ
حين يجيء موعدي
ستضحك السنونْ.

كنتُ صَغيراً والحبالُ
حولَ عُنُقي صغيرةً ،
وكانت العيون مرفأً
وخطواتي موجةً
وما أَقوله غناءْ
تسمعه ، تحبّ أن تسمعه السماءْ.

وبعد حينٍ كبرتْ حبيبتي
وهاجرتْ
وصعدتْ الى جفوني شاطئاً
فشاطئاً ـ الى حنايا أَضلعي .
حينئذٍ أَسكنتها معي .

كانت حديقتي بلا سياجٍ

فرفعتُ واحداً ،

وكان بيتي قَصَباً وغرفةً

فصار حجراً وغُرَفاً ،

وكنتُ أُوقظ الصباح كلَّ ليلةٍ

إذا به يوقظني .

ما همّني !

حبيبتي تحبّني .

تبوح لي ،

لجسدي ،

ويدها عليَّ في خشوعٍ

صامتةً كلَهَبِ الشموعِ .

وأَقبل الخريف . دارت الفصولُ

أَلفَ دورةٍ ودورةٍ

ومات شهريارُ .

وحين مات أَقفر الطريقْ

وها أَنا بلا رفيقْ .

٦

مسافرٌ سلبه اللصوصُ

مزّقوا ثيابَهُ ،

رموهُ في مفازةٍ

هجرها الإلَهْ ،

قالوا له : إلهك الجديد ما تراهْ .

وما أَراه غيمةٌ وجبلٌ

مع الرياح نازحٌ ،

وكُرَةٌ من الحديد جنّحتْ ،

وما أَراه ههنا يموتْ

يهجره . يهجره السكوتْ .

ربّاه حينما تعيدني اليك

ماحياً خطيئتي

أَعدْ إليَّ ، وحدها ، حبيبتي

لكي يصير ما أَقوله غناءْ

تسمعه ،

تحبُّ ان تسمعه السماءْ.

أَنا هنا وَحيدٌ

وجهي على الحجرْ

أَعلُّ قهوتي وليلي

وأَرقب السحَرْ.

حبيبتي تنام باكراً

حبيبتي بشرْ

وها أَنا وحيدٌ

وجهي على الحجرْ.

لو كنتُ في لبنان ، في

مطارحٍ أُخَرْ

ذبلتُ تحت غيمةٍ

تسحُّ بالضجرْ

لكنني هنا ، هنا

ما يملأُ النظرْ

ويجعل الزمان كلَّه

خيطاً من العُمُرْ .

حبيبتي تنام ، هل درتْ

ما خبّأَ القدَرْ

سأَهبط الضفاف خلسةً

وأَعبر النهَرْ .

I

الحجر ينطق. الحجر يصير خبزاً ، يصير نبيذاً ، يصير. الحجر سماءٌ ، هنيئاً لمن له أَجنحة.

آه ، كم أُحبّكِ الليلة.

لمرةٍ أُولى أَضمّكِ هكذا. أتعرَّى فيكِ ، أَكون. لمرةٍ أُولى أَنا هذا الحجر ـ السماء.

عيناكِ ، جسدكِ كلّه طفلٌ يسبح في الماء. أُحبّ الطفل والماءَ ، الماءَ والطفل.

وفي القفر من سوى الحجر يؤنس ، ورغم قساوته يسند ويريح.

فلتكنْ لنا هـذه اللحظة. الحجر سماءٌ ، جناحاها نحن.

II

عندما أَفيق، يفيق النهر ويجري ويملأُ السهل. سأَرفع سارية اليوم. وحدي. الرفيق الذي أَنتظر لم يحضر بعد.

عندما أَفيق، يجلس الضوءُ أَمـامي. لِمَ لا تنهض أَيها الجرح الأَبله وتحمل سريرك وتمشي؟

الجدران تضمحلّ. الهواءُ يصفّق بعينيه. القدم تضرب خاصرة الشارع. لا همسَ في الضوءِ. الصراخ وحدَه كلمة السرّ.

عندما أَفيق، تفيق حبيبتي معي.

III

رجلاي من قصب، سأَجد لي عكازاً.
وجدتُهُ: خيطٌ من الحرير الأَشقر.

سأَمشي الآن الى نهاية الأَرض. في السهل، في الجبل. في الليل. في النهار. سأَمشي كحلمٍ حقَّقته اليقظة.

حبيبتي معي. جسدي معي. إلهي معي. قم أيها القدر وافسحْ لي مكانك.

١٧

من البعيد تظلِّلني سنديانتي وترعاني. تمدّ ذراعيها لي. فيهما عشٌّ بعصفورين.

وها أَنا أُغنّي. في فناءِ الهيكل شجرةٌ من تفاح، ثمارها زيتٌ لحنجرتي.

أُحبُّ سنديانتي كثيراً. لأَجلها أَنا هنا. لأَجلها أَنا أُغنّي.

في النهار أَحلم بالظلِّ، وفي الليل أُعانقه وأَغفو.

سأَرفع الشمس على جناحيَّ. أُسمّرها، فلا تتحرَّك.
ظلٌّ سندياني وحده النعيم.

V

تسلَّقتُ الليلةَ أَبراج العاج. سُلَّمي شعرك الأَزرق.

آه، وعلى مذبحك قدَّمتُ قرابين: زوجٌ من اليمام ونعجةٌ سُمِّنتْ للذبح. وها أَنا أَهبط السفح ومعي وحيدي. جراح الفرح تصيح، وأَيامي صامتة كاليد.

سأَرعى غنمي عند الفجر، وفي المساء أُغني لها أُغنيات الرجوع.

والآن دعيني أَصرخ.

جسدي يبتعد عني. يفارقني كغريبٍ، كفارسٍ ما رأَيته من قبل.

عيناكِ جدولا نداء. ما أَشهى فمكِ الطفل.
لسالكِ يصنع الجسد، ولهاثك يعطي نسمة الحياة.

آه، أَيُّ إِلهٍ أَنت. جنَّتك لا تغري بالخطيئة.
ثمارها كلُّها لي. أَنا إِنسانها الأَول.

عانقيني أَيتها الغبطة. على جسدك أَجريت
زورقي. مجاذيفه شهوة لا تفنى.

للنوءِ أَن يهبَّ ما يشاءُ. أَنا بحّار عريق،
زورقي أَرزةٌ من الحبّ.

عانقيني يا إِلهيَ الصغير. أَغمضي آفاقك عليّ.
أَحبيني أَكثر من الحب. تاريخي جرحٌ عميق لا
قرارة له.

VII

لا تطبقي رداءَكِ هكذا . دعيهِ يدخل. دعيهِ يصعد. نهداك قمّتان . هبوطهما يغري ، يفتّح أَحلام الجسد .

في حديقتكِ سأَغرس عرقاً من الورد .

وإذا عشتُ للخريف ، سأَهدم سياج العوسج وأُقيم واحداً من الريح والضوء .

دعينا نفرح اليوم .

من زمانٍ لم يدرْ لساني على الشهد . أَظافري لا تجرح بعدْ .

قفي عاريةً أَمامي ، أُريكِ مفاتيح العمر .

آه ، دعيه يدخل !

شعاع الحياة صغير . حضوره أَبدٌ من النّسل .

VIII

نافذة مضجعك عالقةٌ بالغيمة . أَهكذا تفتحينها
وتتوارين ؟

من يهيءُ مائدة اليوم ، يمدّ لي بساط الفرح ،
يعانق وحدتي في الظلّ ، يقيني سواد الوجه ؟
وجودي موجةٌ من السرّ يفضّها جسدك الغريب .
لا عبيدَ في مراكبي ولا جواري . لا صنوبرَ .
أرجوانَ . لا حلىً من الزجاج والحجارة .
في مراكبي كلمةٌ وحبّةُ فعل .

وهـا هيَ المدينة استسلمت للفتح . جدرانها
أخذت تتساقط .

وأنا كتموز . دمائي نجاة من القحط ، وجسدي
وليمة للمحبين .

جياعٌ كلّنا الى الجسد ، وعطاشٌ الى عصارة
الروح .

اليومَ مات صاحبي

عيناه نجمتانْ

بكيتُ فوق وجههِ

بكى معي المكانْ.

الحيُّ بات صورةً

على السواد: لا فمٌ

على فمٍ

لا وجهَ، لا لسانْ

على الرصيف ههنا زجاجةٌ

وههنا يدانْ

لعائدٍ مع الصدى

وفاته الزمانْ .

اليوم مات صاحبي
عيناه نجمتانْ .

أَيتها السماءْ

هلّي

نكاد نرشف الدموع من عيوننا

ونشرب الدماءْ

هلّي

تراب أَرضنا مقدَّسٌ

وكلُّه وفاءْ.

هذا النداءُ، هذه الصلاةُ

آخر الصلاةْ

ستنبتُ الآذان طُحْلُباً

ويبطل الرواةْ

ولن يكون أحدٌ:

هذا الحضور ينتهي

ويبدأُ الغيابْ

وليس مَنْ يخرجنا . يعيدنا

وفي الطريق ، في مفازة الإيابْ

يستنزل الكلام في ذُرى الجبالِ

أَو يفجِّر الصَخَرْ

أَو حينما أموت في خطيئتي

يدحرج الحجَرْ.

هذا النداءْ . يا سماءُ

آخر النداءْ

هلِّي

نكاد نرشف الدموع من عيوننا

ونشرب الدماءْ

لنا الخمر والخبز ، وليس معنا المعلم. جراحنا
نهرٌ من الفضة.

في جدران العلِّية شقوقٌ عميقة. على النوافذ
ريح. في الباب طارقٌ من الليل.

ونحن نأْكل ونشرب. جراحنا نهرٌ من الفضة.

العلِّية تكاد تنهار. الريح تمزِّق النوافذ.
الطارق يقتحم الباب.

نقول : لنأْكلِ الآن ونشرب. إلّهنا مات ،
فليكنْ لنا إلّه آخر. تعبنا من الكلمة ، وتاقت
نفوسنا إلى غباوة العرْق.

ونقول: لتسقطِ العلِّية وتهلك. الريح سترحمنا ،
والطارق سيجالسنا. جائعٌ هو الى الخبز ، وظامئٌ
الى عتيق الخمر.

ونقول : لعلَّ الطارق إلهنا الجديد ، وهذه الريح أَزهارٌ شهيّة تفتَّحت في المجاهل .

ونظل نأْكل ونشرب ، وليس معنا المعلم . جراحنا نهر من الفضة .

وعند صياح الديك ، قليلون يشهدون لملكوت الأَرض .

الأَشجار تهجر الصمت وتبكي إلهها القديم.
لا أَوراق على الجسد. العروق كساؤها الأَوحد.

وفي الحديقة ماء.

الهواءُ يتأَرجح في فراغ. الضياءُ يتأَرجح في فراغ.
الفضاء يتأَرجح في فراغ.

وهوذا الحارس مقبلٌ بعصاه. على كتفه سيفٌ
من ورق، وفي فمه صفَّارةٌ من عروق الملح.

ولم يبقَ في الحديقة إلا العصافير. الطيور
الكبيرة حدَّقت إلى الفجر. لا ترى بعد.

والحديقة بلا سياج.

السهل يتسلَّق الجبل. الجبل يرتفع الى البحر.
البحر غابةٌ من الحبل والولادة.

والأَشجار تبكي إلهها القديم. إنه لم يمت
بعد. ذراعُه غيمة في أُفُق الصمت.

للعروق وحدها أن تنطق. فليعدْ دمعكِ الى
الأَرض ..

I

لا أَرى سيداً في الجمع. البجَعُ يتمطَّى في البحيرة ولا نسرَ في الأُفُق. المياه راكدةٌ والضفاف أَقرب من الأَنف. الهواء ثقيل. النور ثقيل. الحمار ينطق ، لا بأُعجوبة. الأَعمى يُبصر ، لا بأُعجوبة. الميت يقوم ، لا بأُعجوبة. الأُعجوبة رقمٌ في آلة ، والسماءُ بقيت في المجاهل.

كنتُ صامتاً وأَنا أَتكلم. المرأَة الى جانبي رداء قاحل.

سأَجرع الكأْس ، والكأْس فارغة. سأَبتسم وفمي بلا شفاه. سأَحصد حقلًا زرعته في الظلمة.

أَنا الليل ، واللصوص ينتظرونني.

II

سأَغرس زجاجة على الرصيف وأَحسبها امرأَة.
قليلًا، قليلًا من الدفءِ. جسدي باردٌ كاللعنة.

لأَلف سنةٍ وأنا أَمضغ القات. لأَلف سنةٍ وأَنا
أَركب جواداً ميتاً. لأَلف سنةٍ وأَنا بلا وجه.
قناعي لوحةٌ على قبر.

واليوم أَنا سائح بلا هويَّة. نقودي مزيفة
ورأْسي بلا شعر.
وموكبي قصبٌ تصفِّر فيه الريح.

III

على شاطىءِ لبنان وقفت أَصرخ: الى متى أَموت
ولا أَموت؟ الى متى أَنتظر الذي ودَّعني وقال:
سأَعود؟ الى متى استقبل المدّ، وعند الجزر أَجلس

على الحافة وأبكي؟

أُريد أَن أَموت: إِزرعني أَيها الريح.

أُريد عودة الحبيب: إِرحمني أَيها الموج.

أَعشاب البرية تصلّي بلا بخور. لا صليبَ في الهيكل. لا صورةَ على الحائط. مفتوحةٌ هي الأَبواب ولا من يدخل.

أَجرْني، أَيها الغائب.

الذئب يأْكل وأَنا أَجوع. الحائط ينهض وأَنا أَقعد. الحجارة كومة من الشهوة واللهيب، وأَنا قِطَعٌ من الجليد في إناءٍ من الكحول.

أَومئي أَيتها الغبطة. طفلكِ يضحك فوق العشب. رجُلُكِ يركب ساقيه مع الريح. الوقت يقعد كسيحاً في شمس الخريف.

أَنا هالك، فممَّا أَخاف؟ أَنا خالد، فكيف تريدني أَن أَتبع؟

آه ، من يحيني لأحيا .

جبهة حصاني قبضة ريح . حوافره أنهار في الحلم . جسده نور في ضاحية المدينة .

IV

سأعصب عينيَّ وأمشي كسيحاً في الأرض. لجاري سورٌ من دخان . لجارتي قبضة من حجر . للغريب بيننا قامةٌ من قصب .

ومع الفجر ، لن أكفر بوصاياي . لن أنهي رحلتي الى ملكوت الموت .

في بركة الماءِ الآسنة أهجو وجهي كالحُطَيئة ، وفي الجمع أَرفع القناع كالحجّاج .

أَنا أحجية . كالنجمة أسقط ، وكجناحَي طائر أرتفع .

أَبصقْ في وجهي ، أَيها المعلم . سريرك فمٌ بلا أَسنان .

V

من يكون هذا الراكض على الرمل ، القابع في هوامش الكتب ؟ من يكون هذا السائق الأَعمى ؟

الأَبيض يحترق . الاسود يصير ثدياً . الشجرة التي ربيتُ تحت ظلالها تيبس . الاسطوانة تدور ولا أُذُنَ تصغي . العمر جاثم [illegible]لَّة . وفخذ المرأَة بفلسين .

الجبال تنتقل كل يوم ، ولا إيمان في البيوت . القديم عبء على الجديد ، والجديد ثديٌ لم يتكوَّر بعد .

VI

عينايَ على الآفاق، وجبيني ساجدٌ في العتَمة.

والذي أُحب، سافر ولم يعد. من مطلع الربيع أنتظر وأَبكي.

الجوُّ غائمٌ ولا من شراع. المدّ فارغ حتى من الرمل. الجزْر قبضة البخيل، والشِّباك كفٌّ مسمَّرة في وجه الريح.

في فمي علقمٌ ومباءَة نحل.

إِصغي إليَّ: أُمي عاقر، وأَبي كاهنٌ في هيكل. معتوهٌ أَنا وصانع عجائب. إلهي يخبر عني، جسدي يخبر عني. جراحه طريئة بعد.

وها همُ الباعة ملأُوا رحاب الهيكل. وامرأَتي، حتى امرأَتي، تخلَّت عني.

VII

عُنُقي من خشب، ورأْسي طابةٌ من التبن على قامةٍ من ورق الجرائد.

إِضربْ، أَنا بابليٌّ. جنائني معلَّقة على ضجيج الشارع.

بيني وبين السماء شعرةٌ من الزمن. كلابي تنبح في الدار، ولا عظام في قبور الموتى.

والذباب يأْكل العيون في مدينة الرب.

إِضربْ، لا تتردَّد. في العليّة قبَّلتني مرتين، وجيبك مليئة بالفضة.

القبر عميق هذه المرة، فلن أَقوم. أَهلي تسلَّقوا ذروات الفضاء، فكيف يهبطون دركات الأَرض. رائحة جلودهم تملأُ الأُنوف، وما من عابرٍ في النور.

إِضربْ. لن أَجلس على حجر. عنقي بلا جذور، وقامتي عكازٌ مهجور.

VIII

لا ترقصوا على قبري. أَنا لم أَمت بعد.
أَتلفَّتُ منذ الفجر، فلا من سيِّدٍ في الجمع.

الجرذان عسكر في دولة الملك. سلاحها أَرجلٌ
غرقتْ في سريرٍ من الوحل.

لمن العيون الفستقيَّة. لمن الكسل في الأَرداف.
لمن البطون العامرة بالهزّ، المترنحة كقصبة في الريح.

أَنا الغابة الوديعة، يقول الجبان. أَنا مفرق
الطريق، يقول المقعد الكسيح.

كلماتي يابسة كالفحم: سوداءُ كعربات الموتى.
والمعرفة التي سرقتها للناس، ستهوي معي الى الهاوية.

IX

للهوان هذه الثمرة الساقطة . للهلاك هذه التربة الزائفة .

في حضرة العميان نحصي أَصابعنا ، وأَمام السلطان نصمت كالسجاجيد .

النسور تبني أَعشاشها في الرمل ، وفي الوحل يصلي القديسون .

إرفعوا قبعاتكم ، أَيها العاطلون عن العمل .

الوثن يجثم على قارعة الطريق ، ينشر قروحه في وجه الشمس . الوثن يمدّ خرطومه في وسطنا ، يحرّك لسان القتل ، يحمل رائحة الأَدغال ، يتمنطق بالرياح الصُّفر .

الوثن في البيوت ، ولا رماد في المواقد .

والثالوث الذي أَرعبكم صار واحداً . خبزهُ حجرٌ ،

ونبيذه قطرانٌ للجرَب .

فلس الأَرملة نقد زائف . والموت قبضة فارغة .

X

لعبدنائيل أروي حكايتي . لعبيده وجواريه هذا النشيد العابر .

الأَيام الأَخيرة على الأَبواب . ساعاتها على رؤوس الأَصابع .

الهزيمة لواءٌ مرفوع ، وأَوجاع المخاض بحارٌ تحترق .

أَعطنا علامةً ، يا ربّ .

أَقوم وأَرحل عن صحرنايا
عن الظلّ عند ارتفاعِ الظهيره
ووقْعِ السُّلَحْفاة – أَقدامِها
على جسَد الورق الميْت في
زوايا الخريف الأَخيره.

أَقوم وأَرحل عن صحرنايا
وأَنفض عني الغبارْ
وفي العطَفات الأَخيرة حيث
تغيب ويسقط خلفي الستارْ
سأَنسى وجوه الحجارة ، أَنسى
حشائشها كرؤوس الإِبَرْ

تعلَّقنَ بالبُرَك الآسناتِ
يعلِّلْنهنَّ وما من مطرْ.
وأنسى غراباً رأيناه حطَّ
بها، فتحرَّك ذيل السكينه
يفتِّش عن جيَفٍ: لا حياةَ
ولا موتَ في تلك، تلك المدينه.

أقوم وأرحل عن صحرنايا
حزيناً وما لي رفيقْ
وفي صحرنايا وُلدتُ، وفيها
على حائطٍ ساجدٍ في الطريقْ
شنقتُ إلهي. وفي الرملِ
في ظلمات الحروف العقيمه
طويتُ سلاحي، طويتُ جناح وجودي
طويتُ الجريمه.

وفي صحرنايا وأَدتُ بناتي

وكنت الضريحْ

وفيها تشوّه وجهي ، تنائ

فدارت به كلُّ ريح .

أَقوم وأَرحل عن صحرنايا

وأَسلك دربي إلى منتهاه

هنالك أَحضن وجه الترابِ

وأَسمع صمتَ الإلّه

وأَبني من الريح مأْوى يقيني

ذباب الضجرْ

وشرَّ ذئاب الليالي الجياع

الى جسدٍ أَو حجرْ .

على جبل الصمت ، في موعدي
مع التائبين ، رفعتُ جبيني
(ذراعاي مشدودتان الى صخرةٍ) :
متى يا أَبي ستعبر كأْسي
متى يا أَبي سأَهبط دربي
إلى إخوتي : أمدّ اليهم جفوني
وأَضحك عبر ظنوني
وأَبكي
وأَحلم . أَسند رأْسي
متى يا أَبي ستعبر كأْسي .

وساد مع الصمت شيءٌ

أَتهويمُ أَجنحةٍ في السواد
أَمِ الفجر شُقَّ؟
أرى شبحاً
إلهي وأَسمع وقعاً
كوقع خطاها:
أَنا يا حبيبة أَذكر طيباً
على قدميّ وشَعراً،
وأَذكر كيف تفتَّح قلبي
فأَحييت ميتاً،
وكيف بحبكِ أَسلمت نفسي
فأَصبحت رمزاً ووعداً،
وكيف لأَجلك أَحببتُ جاري
فأَعليتُ شرفة داري
وها أَنا حيٌّ...

(ذراعاي مشدودتان الى صخرةٍ
وتوقي شديدٌ الى إخوتي)
يضمّد فجر النهار جراحي ،
وقبري طليقٌ ويومي عريقٌ كأمسي .
متى يا أبي ،
متى يا أبي ستعبر كأسي .

وما لنا طريقْ
صدرُ الرصيفِ ضاق
وكلُّ من عَبَرْ
يحصده الذبابْ
كأَنما السكونُ غاب لحظةً
كأَنما السكونْ.

الخادمُ العتيقُ جاءْ
ولم يجد أَحدْ.
الخادم العتيقُ لن يعودْ.
جئته هناكَ والغراب في جوارها ،
وفي جوارها زنبقةٌ وبعضُ أُقحوانْ

وتينةٌ ،

وصنمٌ يرجمه الصغارْ .

والسيد العتيق عادْ

وما رآه أَو رأى أَحدْ

شراعه مزّقه الهبوبْ

وحين غاب أَقفرت شواطئْ

وناح نائحٌ ، وزمجرت رياحْ :

الويل لي ! الويل لي !

وزمجرت رياحْ .

يا صاحبي لا بدّ من طريقْ ،

قلوبنا ، كسائرٍ على الزجاج ، وحدها

ستعرف الطريقْ .

العرس حان ، لحظةً
ويمتلي المكان (لا ،
لا تخرجوا الصغار خارجاً)
الخمر عندنا كثيرةٌ
والليلُ في أَوَّلهِ
وكلُّنا حضورْ.

العرس حان ، والعريس مقبلُ
(زغردن يا نساء ، يا
فوارس الحمى ترجَّلوا)
على الستار أَن يُزاحَ
والثلوجِ أَن تذوبَ

والجراحِ أَن تضمَّدا ،

على الحياة ان تمجَّدا :

لا شيء يخنق المدى

وعند مذبح الجليد شمعةٌ ،

هناك ما تزال شمعةٌ ،

علامةٌ ،

وصورةٌ تحرسها الدموعْ .

الحقل مثمرٌ ، وموسم القطاف آنَ

والسماءُ اضطجعت على الثرى ،

وهوَّذا العريس مقبلٌ

(زغردن يا نساءُ ، يا

فوارس الحمى ترجَّلوا) :

الساعد الطويل لا يخيفنا ،

ولا الخُطى القد ْ٠

سأَنتظر مجيءَ الحصاد. هلالٌ واحدٌ بعد.
السنابل تتَّشح بالذهب. جمالها يملأُ العين.
وها منجلي في يدي، مسنونٌ كجسد امرأةٍ في
حب.
سأَضرب حين يجيءُ الوقت، حين تشبع
السنابل من العيش وتلوي أَعناقها للحياة.
وسأَجمع الغلال واحدةً واحدة. وحين يصير
القمح، ستنعم به عنابري.
تعالوا، يا إخوتي، وخذوا.
في بيت أَبينا فاقةٌ وجوع. لفصولٍ أَلفٍ لم
تمطر. التراب برصٌ على جسد الأَرض.

هلالٌ آخرٌ ويمضي .

وها أَنا أَنتظر . منجلي في يدي ، وساعدي تائقٌ الى الفعل .

وكعاشقٍ على موعد ، أَحلم بسعادة اللقاء . زمني رَكامٌ من الفراغ ، ثقيلٌ يسحق القلب .

ولكنْ مع الرجاءِ يولد الصبر . ومع الصبر كلُّ شيءٍ يصير :

العشب يطلع من جديد . النهر يصل الى البحر . المسافر يعود الى خاصَّته . الحلم يجتاز العتبة .

ومع الصبر يجيءُ الوقت .

وإلى أَن يجيءَ ، هلِّلي يا دقائق العمر ، تعرَّي واغتسلي في الآن ، تكحّلي ببريق اللحظة .

المقبل كائنٌ لم يولد ، والحاضر ابننا الحبيب .

هلالٌ آخرٌ بعد .

منجلي يرقص في الحقل ، وعنابري تحظى
بغلال الموسم .

تعالوا ، يا إخوتي ، وخذوا .

وحين يجيءُ الوقت ، نبذر معاً لموسمٍ جديد .
طوبى للجياع في الأَرض .

مِنْ ظُلُماتِ الجبل الكبيرْ
يخرج نحو حتْفهِ
بالصمت والهديرْ
كفارسِ الأَحلامِ
في دعائنا الطويلْ
تحبُّه السهولْ
تحضنهُ
يبدأُ حيث ينتهي

كالزمنِ
يدور وهو صاعدٌ
مسمَّرٌ

يقبعُ في اللونِ
وفي الحروفْ
في حجرٍ
على حجرْ
في التيه تارةً وفي وقوع
خطوةٍ على الأَثرْ

يدورْ
والشكُّ ورْقةٌ
تسترُ عورةَ السقوطِ
عورةَ الرفضِ :
سدومُ
أَم أُورشليمُ
أَم ظلُّ أَيوبَ على الأَرضِ ؟

يا أَيها الراكضُ في السهولْ

كالزمنِ

تبدأُ حيث تنتهي

فلا تزَول .

ندقُّ بوّابةَ النعيمْ
تنزف أَيدينا
يقال هذا حظُّنا القديمْ
والله صامتٌ فينا.

حرٌّ أَنا
إنْ شئتُ أَطبقتُ يدي
في مولدِ الشمسِ
أَو شئتُ، لي
دهرٌ من الأَمسِ.
خذوا ثيابي وارحلوا
عن عالم الحسِّ

ما زال بي أُغنيةٌ
تُنشَد بالهمسِ.

ماذا لنا في عالمٍ
أَبوابُه أَحلامنا الصغرى؟
الماءُ في أَعماق ودياننا
ونحن اكبادٌ هنا حرّى
نستعطف العابر أُمنيةً
وعندنا أُمنيةٌ أَحرى
متى يجيءُ الموتُ من يدّعي
أَن الذي مات به أَدرى؟

سواعد الأَيام ممدودةٌ
يمشي عليها الزمنُ الآتي
ونحن لا نرضى ولكننا

نرضى كشأْن العاجز العاتي .

لله عينٌ لا ترى أَحداً

سوادُها ملءُ السماواتِ

جنّيةٌ مجنونة أَفلتتْ

تصيحُ بالحائر هيهاتِ

هذا الذي تحسبه صامتاً

ما صاح إلا في جراحاتي .

قَصَائِدُ لاحِقَةٌ

أَسمع كل شيْ
وأَنتَ صامتٌ
وحاضرٌ لدَيْ
وأَنتَ خاتمي المذهَّبُ
قلِ اذهبي ، فأَذهبُ

دوّامةٌ
تدور ، لا تدورْ
مضى نهاري
مضت علامة الحضورْ
ولم تزل يميني
مشلولةً

ولم تزل يساري

على فمي

في ساعة انكساري

،

أَسمع كل شيْ

وأَنتَ صامتٌ

وأَنتَ مقبلٌ عليْ

ولا أَثَرْ

كأَنما الآفاق في ردائي

كأَنني السفَرْ.

أَجسادنا ممدودةُ الأَعناق للنهارْ
والليلُ آتٍ
يرصفُ الدقائقَ الصغارْ
داراً وسوراً حول تلك الدار

والزمن الكبيرُ روّع الفناءْ
لا طيفَ
لا خيال إصبعٍ
لغابر الأَشياءْ.
لولا حفيفُ ورق الغصون تارةً
وخفقةُ الجناح في الفضاءْ
من كان يرسلُ النداءْ؟

من كان يسمع النداءْ

لعلَّ في السماءِ أَحداً

يثأَر للدماءْ !

المجد للرغيف يستديرُ
قمراً ، يقدّم النعاس
للجفون ، للجياع كذبةً
عريضةً
سلوى من السماءْ

والمجد للواتي
يسلبنَ من عيوننا الضياءْ
والأَملَ السحيق أَن
يجيء موعدٌ
وينتهي
ونحن للمسير جبهةٌ

وركبتانْ

والمجد للذي

يعانق الحريرَ ، للذي

يجوّف المكانْ .

نُزيح موجةَ الصقيع عن وجوهنا
نحكي لها حكاية الربيعِ :
كيف يبسم الهواءُ
تُنشد الطيور ، كيف
يرقص الشجرْ
وكيف تفتح النّواة في الثرى
عروقها ويُعقَدُ الثمرْ .

نحكي لها حكاية الخريفِ
حين تنحني الظلالُ ،
والمساء يستطيل، ثم بغتةً
تلوح نجمة أو يسطع القمرْ .

وحين يسقط السياج ، حينما
تنبسط الحقول نظرةً
على مدى البصرْ .

.
.

نحكي لها
حكايةَ الصيف الذي يجيئنا
على جناحَي نغمةٍ دافئةٍ
أَو قفزةٍ من جُندبٍ سعيدْ ؛
ونحن نجمع الغلالَ تارةً
وتارةً نعيدْ
ذكرى وقوف غيمةٍ هنا ؛
هناك في البعيدْ .
نُزيحها
نحكي لها حكاية الفصول كلِّها
لكنها

تغور في عروقنا ، تضيعْ
نظنُّها تضيعْ
وهي التي تلوحُ فجأةً
في شعرةٍ تبيضُّ ههنا
أَو شفةٍ تجوعْ.

I

الآن أَمسح الهمومَ والجنونَ
في موانئ الزحام أَحتمي
أَصيح بي:
عليك ثأْرُ مَن يغالب القدَرْ
يسلبه الزمان عشبةً
غاص إِليها في قرارة العُمُرْ.

II

أَلليل جالسٌ معي
ينتعل الدخَان من لفائفي،
والصمتُ كلُّ ما أَقولُ

في بياض صفحةٍ:

هذا الذي أُحبّ جاءَني

أوائلَ الشتاءْ

وما على الغصونِ

ثَمَرٌ، ولا غناءْ:

يريد أَن يعيش في

ولادة الفناءْ.

III

أَلعالم استراح في قصيدتي

وطيلة السنين عاش تائهاً

بلا رفيقْ،

يسائل الصغار، يلعبون، عن

معالم الطريقْ:

أَأطبقت عليه دورة الزمانِ

صار جسداً ـ وليمةً

لإخوتي الصغارْ :

لي بعدُ ما أَقول ، ما

أَمدّ أَضلعي له ،

أَحضِنهُ ،

في آخر النهارْ

مع السواد ، مع برودة الحجارْ .

IV

والآن أَحضن الهمومَ والجنونَ

في موانئ الزحام أَحتمي

أَحمل من قرارة البقاء آيةً

أَخيرةً :

وجودنا انتظار ما يجيءُ

حين لا نكون في انتظارِهِ :

نهاية المسير قمّةٌ

ونحن لا نسيرُ

نظلُّ في السفوح كومةً

تزحف أَو تموتُ :

ينسج ثوبها الأَخيرَ عنكبوتُ

ولا يقال للجبال انتقلي

إلى البحار ، أَو فأَقبلي

وابتدئي الحياهْ :

لا نورَ ، لا ظلامَ ، لا إله .

I

أُوقظُ من سواده الصَّباحْ
أُلبسه النهارَ ، أُلقي
فوق صدره الوشاحْ
من غيمةٍ تمرُّ أَو ملاءَةٍ
تنسجها الشمس ، من الرياحْ
تروح أَو تغدو
يدفعها الوعدُ
بأَنَّ في أَرجائنا الفساحْ
متَّكأً لكلِّ متعَبٍ
من فرطِ ما صفَّق بالجناحْ .
أُريد أَن أَعيش في الزمانْ :

أَكون ، لا أَكون ها هنا ،
هناك ، لا مكانْ.
أَرفض أَن أَموتَ : كلُّ يقظةٍ
تُدني من امتحانْ
قدرتنا على الصمود وحدنا
في حلْبة الرهانْ:
والموتُ (وهو مقبلٌ)
يُمسك بالعنانْ.

II

مَن يوقظ الخطيئه
يمسح عنها صدأ السنينِ
يبني قبباً مضيئه ،
من خشب الأَرز ، ومن
رخام بعلبكَّ: كأْسنا مليئه

بخمرةٍ لا تستحيل أَدمعاً
ولا دماً ـ قبلتُنا بريئه
تخاف أَن
توقظ في قلوبنا الخطيئه
والله في ديارنا مشرّدٌ
يودُّ لو أَنَّ يداً جريئه
تُعيده ـ

تُعيد سيرة الفصولْ ،
والليلِ والنهارِ ، والجداولِ التي
تخترق الجبالَ والسهولْ ،
والمهدِ واللحدِ ،
والجزْرِ والمدِّ.
خمّت بنا ، به الحقولْ :
لا ظلَّ ، لا سقوط ورْقةٍ ، ولا .

III

سأُوقظ الصباحَ ، مَن

سيوقظ الخطيئه ؟

جراحيَ التي حملتُ ، ها كها

في راحتيَّ ، لم تزلْ طريئه :

بلا خطيئةٍ ،

بلا يدٍ جريئه .

نهارْ !.

وكلُّ نهارٍ جديدٍ

دنوٌّ إلى أَثِكا. ضياعٌ

لعشر سنين. ضياعٌ وغُربَهْ

ونحن نصلِّي الرجوع. أَنصرٌ

هناك بطروادةٍ ، بعيداً على

ترابٍ غريب ؟

هلمّوا !

لنفتحْ قلوع الصباح ونمضِ

على اسم مِنَرْفا .

ـ « هَلَا ! بمنرفا

وطأْنا حصون العدوّ ، عقَلْنا

جنون البحار ، قهرنا

عمالقةَ الانس والجنّ...

وعُدْنا .

لريح الشمال هنا ، يا أُوديس ،

عبيرٌ أَليف . »

– عبيرٌ حلا .

لكلّ ترابٍ عبيرٌ

لأَبنائه ، ولونٌ ، وطعمٌ

وغَنَّةُ صوتٍ .

– «لنهتفْ ، إذنْ

ونذبحْ قرابيننا . ونَشْدُ. ونروِ

وقائع أَبطالنا ... »

– ونسرعْ ، فلا

تباغتنا الشمسْ.

– «نُعير الرياح

سواعدنا . فقد نبصرُ الشطَّ

قبيل المساء . »

– بلى ،

وقد نلمسُ الأرضْ

– « بأحداقنا

ونبكي . »

– ونبدأُ غربتنا من جديدٍ

على أَرضنا . يقال الرحى لا تدور

ولا القوس ترمي .

ويأبى السنى أن يعودَ

ليمسحَ جفناً بجفنِ .

يقال أَجيناس جُنّ ، وأَخميدُ

مُزّق عضواً فعضوا . يقال القبورُ

تغصّ بأَحرارنا ، والحقولُ

مواتٌ . يقال ... وحكّامنا

رعاةُ خنازيرَ .

– لا ! لا !

سنبدأُ غربتنا من جديدٍ
وعودتنا . ضَياعُ الغريب
على أَرضه ضياعٌ أَمرُّ
به لا يُرجّى رجاء .

– « بأُوديسَ »

يُرْجَى . سنرفع هاماتنا للسماء
ونحمل راياتنا
ونمشي . ويهرع كلُّ الينا
ويبسمُ طفلُ :

حياةً فنحيا .

في أَول الشتاء كنت ناقماً
على الخريفِ : غزَّ مخلباً هنا
هناك دون رأْفةٍ
بأَصغر الغصون .

قيل ليَ اطمئنَّ هذه
علامة الفصول . بعد دورةٍ
يجيؤك الشتاء حاملاً
إلى الجذور دمعة الحياةِ . ربَّما
يكون قاسياً على الجذوعِ : بعضُها
تظنه انتهى ، بل إن بعضها
يغيب بغتةً

وفي الربيع، حين يستجير
آخر التخوم ، يفتح الثرى
عروق دمه الجديدِ.

كنتُ عالماً

بما يقال ، إنما حزنتُ
أَن أَرى الوجود ينقضي
ولو لبرهةٍ :
أَحببت هذه الحديقة التي
حين غرستُ كلَّ نبتةٍ بها
غرست كلّ أَملي.
تُرى ،
أَخشى على الجذور ، أَم فقدتُ
ثقتي بعودة الربيعِ ؟
فليكنْ.

صرتُ على منحدر الطريق
كلٌّ مطمحي
أَلَّا يضيعَ وجهيَ الذي لبستُ ،
صمتُ قلمي
تنقل رجعَهُ الحروفُ .

أَذكر كانوا حزمةً من العصيِّ

كلٌّ واحدٍ

منهمُ شقَّ في البحار

درب ثورةٍ ، فجَّر ماءً

من مجامع الصخور .

فجأةً

قستْ عليهمُ الرياح ، سقطوا ،

تناثروا هنا ، هناك ، واحتموا

في ظلٍّ غابةٍ من النخيلِ

آهِ ، هكذا تكسّروا .

كنت أُحبُّ ينتهون بعد أَن

ينتهيَ البناء: ظلَّ ناقصاً
لا سورَ حوله ،
سقفَ يقيه غيلة المطرْ ـ
الرعدِ والبروقِ والمطرْ .

لكنْ لهم عزاءُ من يضيع
في متاهة الزمان: أَثرٌ
لقدمين ، خبرٌ ، علامةٌ
للاحقين. فالمسير في بدايةٍ
والشمسُ هٰهنا
والبحرُ والجبالُ هٰهنا
وما هناك خطرٌ
من اللصوص ، حتى لو ،
فالسامريُّ دائماً يمرُّ ، دائماً
يضمِّد الجراح .

الدار حُرمةٌ على الجوار ، حرّةٌ
للعابرين. في السياج ثغرةٌ
فتحها الشتاء . كان قاسياً .
والآن كلُّ مطْرةٍ
تزيح حجراً أَو حجرين ؛
تُضعف البناءَ كلَّه
أَو ما تبقَّى .

تحت سفحها
ينحدر النهار ، ينطوي ، وفجأَةً
يبحر في البعيدِ.
والمساءُ عندما
يجيءُ تحسبُ النهار إنَّما

يريك سرّه ، يعيد صامتاً
سواد ذكرياته .

والدار بضعةٌ
تفيق لا على القليل (عائدٌ
يقتحم البحار ، غابةٌ
تزحف للقتال) ، همُّها
دحرجةُ القناع (كان
صخرةً) .

وكلُّ عابرٍ
يمسح ما وراءه ، يسير أَو كأَنما
بريق خنجرٍ مع الظلام : لا استغاثةٌ
في جانب الطريق ، لا دمٌ
(قد استحال خمرةً)
والعابرون نسمةٌ وطين .

الوقت سائبٌ وقدمي
تاهت على مفترق الطريقِ . لم أَجد
علامةً . كم كنت واثقاً
أَني عرفت أَين وقفتْ
للعابرين . ربما الهواءُ كان عاصفاً
في ذلك النهار ، أَو لعلَّ ثقتي
لم تكُ في محلها .

وها أَنا
أَميل خطوةً هنا
وخطوة هناك : كلُّ أَملي
أَن استعيد قدرتي على الرجوع أَو

أنجو من السقوطِ.

لا

لست أَقول ليتني
بقيتُ حيثما أَتيتُ : من
كان سيملأُ الفراغ ، يستحيل آخَراً
إلى نهاية الجسورِ ؟

كنت ساعةَ
العبور واحداً من الصفوف ، نقطةً
ما بين عالمين ، كلُّ عالمٍ
ذكرى امتداد وهمهِ
على الظنونِ . (قيل ثورةٌ ، ولادةٌ
وقيل آخر الحصونِ)

لا

لست أَقول ليتني

بقيتُ حيثما أَتيتُ : كنت جبلًا

من الدموع سقطت

منه غشاوة على العيون. آهِ لم

(ويح الذين أَبصروا)

يُسمعْ صراخ أَحدٍ ، لم تنكسر

أَصابعٌ تشدّ ، تمسك الجذورَ

في التسلُّق الاخير. كان موضع

السقوط هيِّناً على الضفاف ، هيِّناً

كسحق حفنةٍ من الذين صمدوا ،

مشوا على الظلال ، رفعوا

للفتح راية العبور ، كالمسافرين ابداً

مع الغروب ، مع سطوع نجمةٍ

على الحدود.

آه بعضنا رأى

وبعضنا استراح هكذا

بلا شفيعٍ . ربما
كان الجحيم بارداً
كالراحة التي تُنال ، هانئاً
كجسدٍ يموت (ليس كل جسد
يموت) مثلما
تموت رغبةٌ أَيقظها انهيار ورقٍ
مع الخريف .
لا علامةٌ ، إذنْ
لا أثرٌ للعابرين (كيف لا
والعابرون يعبرون بغتةً)
حتى نهاية المدار ، حيثما
تنشقّ حجُبُ الظلام ، ينهض
الذين في قبورهم : كأنَّ فاتحاً
ولو على الصليب ، فاتحاً
يكون في انتهائه ابتداءْ .

في المنحنى الاخير تلتوي
مع الطريق ، والعيونُ
تأْكل البعيد وهو صنمٌ
الى السماءِ .

فكرةُ الرجوع تمّحي :
أَمامك السقوطُ أَو بلوغُ
ملتقى الخطوط . هكذا
حتّى ظهور آيةٍ على الجدار .
أَم تظنُّ قبضةَ الإِله انفتحتْ
وأَومأَت اليك ؟ لا ،
فأَنت سافرٌ على العيون
جسدًا من ورق الهموم ،

تشتكي ، تغرز لعنةً
كضلع آدمٍ ،
وأَنتَ راحلٌ
الى المْناطق الحرام هوّةً
ما بين ضفّتَي
فنائك العظيم ، جاهلًا
أيّان تنتمي.
والحاملوك يعرفون لا يشيّعون
أَحداً : قايين لا يموتُ.

من مئتينِ ، تسعِ مئةٍ من السنينْ
(تذكروا اليرموك، لا تغب عن بالكم حطّينْ)
كانوا هناك كلُّهم
ينتظرون في محطة الرجوعْ .

سينهضون ، كلٌّ واحدٍ
سنبلة بألفٍ. كيف لا ؟
لا يُهزم المحاربون أبداً
قد يُغلبونْ :
يسدّدون ضربةً إلى العدوِّ
يسقطونْ
لا يصمدون حيثما

لا ينفع الصمودْ.

مضى زمان لم نعد نرى
أَقدامنا: نسير غابةً
كسيحةً من الرؤس، ربما
نبدأ ننحني على الطريقْ
نبصره
نسلخ جلدنا العتيقْ.

٢

الويل للذين يحملون جبلاً
ويرزحونْ،
للغاضبين، الرافعين رايةً
ويسقطونْ.
ظلُّهم ثقيلْ.

أَحرى بهم يضاجعون غابةً
من النخيل، يشربون كوثراً
في ظلها الظليلْ.

ويلٌ لهم،
لكلِّ ممسكٍ بطرف النهارْ
معتصمٍ
بآخر الخيوط، مؤمنٍ
بآخر الأَسوارْ.
خيرٌ لهم لو صعدوا النجوم
في قصيدةٍ؛
في آيةٍ؛
في نغمةٍ وآهةٍ
يلملمون كلَّها الرياح
في حقيبة النزوحْ

عن الضفاف، عن معالم الجروحْ

ويلٌ لهم:

لو يسرجونَ حلمهم ويهبطونَ

يهبطونَ

يهبطونْ

لعلهم يحترقونْ

فيرجع الجليد من متاهة العصورْ

ليطمس القبورْ.

رباعيات أربع

خذوا كل شيءَ

زهوري ، حشائش داري ،

غناءَ العصافير عند الصباح

وصمت المفاتيح ، خمرة كأْسي

وبصَّة نار وحيدة ،

ولا تتركوا لي قصور العناكب :

أَحلامُها

معلَّقةٌ بخيوط السماء .

خذوها . خذوا كل شيءٍ :

نقيقَ الضفادع ، رفَّ

الخفافيش عند المساء

وآثار أَقدامهنَّ : الرتيلات

على مسندي ،

ودعوني ، دعوني

بعيداً عن الشوق والأُمنيات

لأَن الجداول عند الرجوع

تحبُّ هدوءَ السهول

وصوتَ السكينة ، تحنانَها

هنالك عند الشطوط .

وحين أَموت خذوا جسدي

ولا تدفنوه

لئلا يقوم مع الفجر يوماً

ويكشف سرَّ الإِله .

مع الشوق يحلو لنا الانتظار .

وإن فرغت خمرة في الكؤوس

فها هوذا الرب بين الحضور

لأَن المحبين : أَعراسَهم

ولائمُ يفرح فيها الجميع .

وفي الحب تنكشف الأُحجيات

فلا يتدحرج صخر القبور

ولا يصعد الله نحو السماءِ ،

بل الارض تكبر حتى الزوال

وتملأُ كل زوايا المكان .

وعند الرجاءِ نعانق حتى

حروف السنين

فتنهض في مثل اون الغبار

نهوض إله قديم

وصاياه لا صرخة في الجبال

ولكنها همسة في القلوب .

ويبقى لنا الوعد عبر الجذور

وعبر شتاءَات هذا الزمان ،

وما الملكوت رجوع ولكن

هو الليلك ينبت بين الصخور .

بعيداً عن اللارجوع

نصير يتامى

ولا شيء يفعل ، يجعل أحلامنا

خموراً على اسم نبيّ .

مشاعاً نصير

وغربة سهمٍ إلى أن يرى ،

يرى مقتلا في أخيل .

وملء أناملنا اللمسات ولا من يحسُّ

ولا من إذا

تباطأ وانحدر الصاعدون

يهبُّ بجرح ، يقول

ويفتح جمجمة الأرض: لا ، لا

وجدتُ هنا السائرين

على مهل ، ولا من رثاءٍ
لأَطفالنا
يعزي ، يشدُّ الاكفَّ ، يذكِّر
أَن البطولة شيءٌ مباح .
هو اللارجوع
ونحصد حلم أَشورٍ ببابلَ
نرفع فوق الرؤوس
حدائقنا
لأَن الظلال بنا هاجرت
لتسكن بين القبور
علامةَ هذا الزمان .
هو اللارجوع
نلملم أَبداننا وهروباً
نموت مع المائتين على لا رجاءٍ
لأَن المناحة باقية ويهوذا

ونعشَ الإله القديم .

ونحن الذين نشأْنا ، نشأْنا

على مضضٍ ، تلك أَيامنا

ترابٌ يداس

فلا الحاضرون جراح بكفٍّ

ولا الغائبون .

إذا رأْيتَ شجر الصبار واقفاً

على سلاحه

وزهرة الحقول أَطبقت

وسقطت علامة الربيع

فلا تخفْ

هناك في السماءِ غيمة

تحرس دورة الفصول .

ولا أَقول دعاك واطمئن

واهدم سياج الوعد والأَمان

فاللّه قد يمسح ذات يوم

معالم الوجوه

لأَن واحداً من الملائكة

أُصيب وهو ساجد

بمثل عارض الجنون .

هو البقاءُ راقص

على حبال الليل والنهار

لنا الصلاة أَو ركوب موجة

تحملنا

تحمل كل أَمل ، بدايةٍ

إلى مجاهل المكان

ثلاث أغنيات للزمن

أَجلس في زاوية الأَيام

هنا الغصون

تنوءُ تحت وابل من البياض

أَرسم في التراب صورةً

ما همَّ او أَزالها الشتاءُ .

صرنا نخاف ظاهر الاشياء

لا نطرح الشباك ، بل نريد

تبقى على خاصرة الرمال .

يقال تذهب الاشياءُ أَو تجيءُ

لكنني أَخشى يكون ذلك البياض
هنا ليبقى ، زاعماً أَنه
جاءَ يقيني خطر السواد .

هناك في الحضور زمن
إذا استراح في العيون أَقبلت
سحابة التجلِّي :
لا فرق أَيُّ أَنبياءٍ ظهروا
يكفي لقاء ما يُرى ولا يُرى
حتى نودَّ ننصب الظلال .

أَجلس في زاوية الأَيام
أَرسم في التراب صورةً
ما همَّ لو أَزالها الشتاء .

وعبثاً تصيح :

ما كان لا يصير

لا تنعق الرياح في ديارهِ

لا يجثم الغراب .

وفي الطريق شبح وآلف ،

وشهرزاد

تحكي حكاية الحياة

تقول حيث يكثر الجراد

يختبيءُ الصدى

وراءَ ما يبقي من اخضرار

ما كان ذلك الشتاءُ قاسياً

ولا الربيع ،

كان الذي نزرعه في النهار

نحصده

متى يلوح طرف الظلام .

للنبع أن يجفَّ ، ربما

من غضب الشموس ،

لكنَّ زنبق الحقول يرتوي

في قطرة تظل أبداً

في آخر الصخور .

أَحب هذه السفوح

كأَنَّ كل حجرٍ بها

وعشبةٍ

في مثل صورة المسيح .

وحين يصعد الضباب

أحبّها

تلملم اللوعة والعتاب

علامة الرضى .

نحن نعيش أو نموت

وهذه السفوح

كالنهد ساعة السكوت

يعلو

ويحلو معه النزول .

كنت أودُّ أن أرى

ماذا وراء تلكم القمم

لكنني أحبُّ هذه السفوح مثلما

يحبُّ جرحه الألم .

